431

HARLEQUIN

روايات أحلام

وردة لا تموت

آن ميثر

www.elromancia.com
مرمورية

وردة لا تموت

كانت حياة ايف روبرتسون هادئة جدا وهي تعيش في تلك القرية المنعزلة. ولم يزعج هذا ايف. فهي كانت مسرورة لأنها تركت ماضيها المؤلم خلفها. ولكن استقرارها هذا أصبح مهددا الآن مع وصول جيل روميرو...

جيل طويل و أسمر.. و ذو جاذبية خطيرة.. وهو يريد ايف وبراءتها تجذبه إليها بقوة لا يستطيع مقاومتها.

وأخذ قلب ايف يضعف. و لكنها كانت تعلم أنها تلعب بالنار فهناك أشياء لا يمكنها أن تخبره بها دون أن تفتح أبواب الجحيم. و لكن إلى متى يمكنها أن تقاوم غزو الحب !

لبنان	3000ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	100ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2.50دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 978-9953-15-399-5

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية

محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بترخيص خطي من ***Harlequin Books S.A***

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال

تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة ***Harlequin Books S.A***

العلامة التجارية ***Harlequin*** وشعار ***Joey*** هما ملك شركة ***Harlequin Books S.A***

وهما مستعملان هنا بترخيص منها

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص

حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

The virgin seduction

First published in Great Britain 2005

Harlequin Mills & Boon Limited

© Anne Mather 2005

Translation © Dar El-Farasha - 2005

ISBN 987 - 9953 - 15 - 399 - 5

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -

ص.ب: 8254/ 11 هاتف/فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان

Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

آن ميـــثر

بدأت آن ميثر بالكتابة منذ طفولتها وتطوّرت أعمالها تدريجياً من روايات المراهقين الغرامية العاصفة إلى روايات الحب المتزنة التي تهوى مطالعتها. وهي متزوّجة وأمّ لولدين، يعيشون معاً في شمال إنكلترا. تستمتع آن ميثر إلى جانب الكتابة بهواياتٍ عديدة، منها المطالعة وقيادة السيّارات والسفر إلى أماكن مختلفة حيث تعثر على أفكارٍ لرواياتٍ جديدة. تعتبر آن ميثر نفسها محظوظة جداً بممارسة عملٍ لا تستمتع به فقط، بل يدرُّ عليها المال كذلك.

www.elromancia.com

١ - زيارة مزعجة

جاءت جدتها إيلي تبحث عنها بينما هي تجرف السماد من مربط الفرس «ستورم» في الإسطبل. كان من المفروض أن ينجز هذا العمل في الصباح لكن ميك لم يأت اليوم، فعرضت إيف المساعدة.

ومع ذلك، شعرت إيف بشيء من الخجل عندما غطّت السيدة المسنة أنفها بمنديلها قبل أن تقول: «اخرجي من هنا. أريد أن أتحدث إليك».

لم تعارض إيف، فلا أحد يعارض الجدة التي عادت أدراجها متوكئة على عصاها. وضعت المجرفة التي كانت تستعملها على عربتها ونظرت إلى يديها لتتأكد أنهما ليستا قذرتين، ثم تبعت إيلي إلى الخارج حيث هواء المساء الجاف.

إنه شهر تشرين الثاني، ودخان الغابات يطغى على رائحة الإسطبلات.

انتظرت السيدة العجوز حتى خرجت حفيدتها من الباب لتعلن بخشونة: «كاسي قادمة غداً».

توترت معدة حفيدتها لكنها كانت أذكى من أن تظهر ذلك، وقالت: «ألا تعنين كاساندرا؟».

- لا، بل أعني كاسي.

وأضافت المرأة بحدة وهي تلف وشاحها الصوفي حول كتفيها: «سمّيت ابنتي كاسي وليس كاساندرا. إذا شاءت أن تطلق على نفسها

ذلك الاسم الأحمق اللعين، فليس عليّ أن أحذو حذوها».

وافقتها إيف الرأي برفع حاجبيها بجفاء، لكنها فكرت في أن وضع إيلي الوشاح الذي أهدتها إياه كاسي منذ عدة سنوات، أمر ذو دلالة. هل يعني أنها سامحت ابنتها أخيراً؟ وهل تشعر أن زمنها شارف على النهاية؟

- هل ستطيل البقاء هنا؟

طرحت إيف سؤالها بعفوية وهي تدرك أنّ هذا الوقت لن يمرّ بسهولة، فهي وكاساندرا لن تكونا صديقتين أبداً. لعله من الأفضل أن تنتقل إلى الفندق أثناء وجودها هنا. وأجابت إيلي بتذمر: «لم تخبرني. عليّ أن أكيّف نفسي مع ما تحتاجه. بالمناسبة، ستحضر رجلاً معها. أنا لا أعرفه، ولكن، بحسب معرفتي بكاسي، لا بد أنه رجل قادر على أن يساعدها في مهنتها».

فقالت إيف بفلسفة: «حسناً... إذا كانت ستحضر معها صديقها، فأشكّ في أن تبقى طويلاً. ربما لديه التزامات مهنية. ماذا تريدينني أن أفعل؟».

ضاقت عينا إيلي اللتان تشبهان عيني حفيدتها: «لِمَ أريدك أن تفعلي أي شيء؟ رأيت فقط أنه من المفروض أن.. أن...».

- تحذريني؟

- أن أخبرك أنه لو كان بإمكاني أن أتخلص منها لفعلت.

لم تصدّق الفتاة كلام جدتها، وردت بجفاء: «كلا، ما كنت لتفعلي هذا، فأنت مسرورة لحضورها، حتى لو كانت تستعمل هذا البيت وكأنه فندقها الخاص، كعادتها دوماً».

- إيف..

- اسمعي يا إيلي، إنني أتفهّمك. وهكذا، أتريدينني أن أبحث عن مكان آخر أقيم فيه أثناء وجودها هنا؟ أنا واثقة من أن هاري...

- سندع هذا الاسم المحترم خارج الموضوع. لا يمكنك أن تقيمي معه، فهذا بعيد عن الحشمة. على أيّ حال، هذا بيتك، ولا أريدك أن تخرجي منه.

- لا بأس.

همّت إيف بأن تنصرف، لكن السيدة العجوز لم تكن قد أنهت حديثها بعد، إذ قالت بصوت مرتجف: «نحن هنا في شمال إنكلترا وليس في شمال لندن. أنت لا تعيشين في زريبة أغنام كريهة الرائحة الآن».

كان كلامها هذا دليلاً على أن جدتها ليست مستاءة من زيارة ابنتها كما تدّعي، فإيلي نادراً ما تأتي على ذكر المكان الذي كانت إيف تعيش فيه عندما جاءت لنجدتها. ورأت من التعبير الذي ارتسم على وجه الجدة أنها ندمت لأنها تحدّثت إليها بهذه الخشونة. لكن لا بد أنها تذكر أن كاسي بالكاد وجّهت إليها الكلام في آخر مرة كانت فيها هنا.

قالت الجدة وكأنها تريد أن تتأكد: «هل تعنين أنك لا تريدين أن تكوني هنا عندما تحضر كاسي؟ لأنك إذا...».

وظهر التردد الذي تشعر به حيال الزيارة في خطوط وجهها القلقة.

تمتمت إيف بالرغم عنها: «رأيت أن الأمور ستكون أسهل إذا تركتكما وحدكما».

لم تشأ أن تؤلم المرأة التي تعتبر أقرب الناس إليها وصديقتها.

قالت الجدة وهي تدس يدها في جيبها طلباً للدفء: «حسناً، الأمر ليس كذلك».

وأضافت: «حسناً، البرد القارس لا يسمح لنا بالوقوف هنا للتحدّث على أيّ حال، سنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً، ربما أثناء تناول العشاء».

لكن إيف كانت تعلم أنهما لن تفعلا ذلك فجدتها قالت ما عندها وهي أنانية كابنتها كاسي ولكن أنانيتها من نوع آخر. فهي ما كانت لتترك

www.elromancia.com

طفلتها منذ ولادتها، أو تتجاهل وجودها أثناء الأعوام الخمسة عشر الأولى من حياتها.

سألتها الجدة: «لن تتأخري في العودة إلى البيت، أليس كذلك؟».

فأومأت إيف: «حالما أعيد ستورم إلى المربط».

- هذا حسن.

وبدا على الجدة وكأنها تريد أن تقول المزيد، لكنها لم تفعل. ورفعت عصاها بالتحية، ثم سارت نحو الأنوار المضاءة لبيتها.

* * *

طوت السيارة المستأجرة الأميال بين لندن وشمال إنكلترا. لم يشأ جيك المجيء، وكلما انتهت هذه الرحلة بسرعة كلما أعجبته أكثر.

قالت كاساندرا ببشاشة حازمة: «هل نقف ونتناول الغداء؟».

ولأول مرة لم يتجاوب مع ثرثرتها الحيوية بعد أن أدرك أن ما فعله خطأ. ما كان ينبغي أن يرافقها، فإحضارها له إلى هنا للتعرف إلى أمها يشير إلى علاقة غرامية ليست موجودة أصلاً.

لقد اعتادا في الأشهر الستة الأخيرة قضاء الأوقات معاً، لكن علاقتهما صداقة غير جادة، بالنسبة إليه على الأقل. فهو لا ينوي الزواج مرة أخرى أو تأسيس أسرة مع امرأة مثل كاساندرا. إنه يحب صحبتها، لكنه يعلم أن العيش معها سينتهي بالفشل حتماً.

- هل سمعت ما أقوله، يا حبيبي؟

كانت كاساندرا مصممة على الحصول على جواب فالتفت جيك بنظرة سريعة وردّ: «سمعت. لكن ما من مطعم في هذه الأنحاء».

- ثمة استراحة على بُعد خمسة أميال.

- لا أرغب في تناول الشطائر أو اللحم المشوي.

ونظر إلى ساعته قبل أن يضيف: «سنصل بعد أقل من ساعة على أيّ حال».

- أشك في ذلك.

وبدا عليها الاستياء، فقال: «قلت إن المسافة لا تتعدى المئتي ميل. وأرى أننا اجتزنا حتى الآن ثلاثة أرباع المسافة».

هزّت كاساندرا كتفيها بعدم اهتمام: «لعلي أخطأت في تقدير المسافة».

اشتدت أصابعه على عجلة القيادة: «أفعلت هذا حقاً؟».

- حسناً، نعم.

والتفتت إليه، متلهفة لنيل صفحه: «أدركت أنك ما كنت لتوافق أبداً على مرافقتي لو أخبرتك أن المسافة تتجاوز الثلاثمئة ميل».

وأمسكت بكم كنزته، وراحت أناملها تلامس الشعر الأسود. لكنه لم يتجاوب مع ملامساتها الحميمة هذه. كان يفكر في الثلاثمئة ميل، ما يعني أنّ أمامهما ساعتين للوصول وأن عليهما أن يتوقفا في مكان ما لكي تعبث كاساندرا بالسلطة وترشف الحساء. ورغم أنها نادراً ما تأكل وجبات طعام حقيقية إلا أنها تصر على شرب أكواب عدة من القهوة كلما سنحت لها فرصة.

- لقد صفحت عني أليس كلك يا حبيبي؟

وازدادت التصاقاً به، ووضعت رأسها على كتفه مضيفة: «هل يمكننا أن نتوقف؟ إنني متلهفة لتناول فطائر الخضار».

فوجيء بطلبها هذا وأدرك أن ما من خيار أمامه. ولم يقل شيئاً لكنه تحول بالسيارة من الطريق السريع إلى الاستراحة التي أشارت إليها.

عندما حمل كل منهما صحنه وتوجّها إلى مائدة اختاراها بجانب النافذة قالت: «هذا ممتع، أليس كذلك؟».

وكانت قد اختارت كالعادة صحن سلطة من دون صلصة دسمة وزجاجة مياه. وتابعت: «هذا يمنحنا مزيداً من الوقت نقضيه وحدنا».

فأجاب يذكّرها بفتور: « كان بإمكاننا أن نمضي مزيداً من الوقت

www.elromancia.com

وحدنا لو بقينا في المدينة».

وتساءل بكآبة وموجة من الحنين إلى موطنه تغمره عما يمنعه من أن يكون في جزر الكاريبي حالياً.

- أعلم هذا.

ومدّت يدها تضعها على يده تغرز أظافرها الطويلة الحمراء في لحم معصمه، متابعة: «لكننا سنحصل على بعض المتعة. هذا وعد مني».

تملك جيك الشك في ذلك، فقد أخبرته كاساندرا أن أمها في السبعينات. ولم يكن جيك واثقاً تماماً من سن كاساندرا. وتصوّر أنها في أواخر الثلاثينات ما يجعلها تكبره بست سنوات، رغم أن هذا لم يكن مشكلة أبداً.

قال محاولاً أن يبدو إيجابياً: «والآن، أخبريني عن بيتكم «ووتر سميث». من يعيش مع أمك؟ قلت إن المكان فسيح للغاية، وأتصور أن هناك من يخدمها، أليس كذلك؟».

- حسناً، هناك السيدة «بلاكوود»، مديرة منزل أمي. وبيل تريفيث الذي يعتني بالحديقة والأرض. كان لدينا عدد من الخدم للاسطبلات عندما كانت أمي تربي الخيول، لكن الحيوانات بيعت كلها، فلم يعد ثمة حاجة إلى الخدم كما أتصوّر.

قطب جبينه: «ألا تعلمين؟».

كسا ملامح كاساندرا الرقيقة الشاحبة بعض الاحمرار، وقالت مدافعة: «لقد... لقد مضى بعض الوقت منذ أن كنت في البيت».

وعندما رأت التعبير الذي بدا على ملامحه سارعت تقول: «كنت مشغولة يا حبيبي. وكما أصبحت تعلم الآن، الوصول إلى الشمال ليس سهلاً».

- ثمة طائرات.

فأصرّت رغم عدم صدقها: «كلفة الطائرة غالية ولم أشأ أن أستجدي

من أمي».

- إذا كان هذا عذرك... حسناً.

لم يشأ أن يجادلها لا سيّما في أمر لا يخصه. إذا شاءت أن تهمل أمها فهذا شأنها وحدها. لكنه سألها: «أليس لدى السيدة ويكلز مرافقة؟».

راح يفكر في تلك السيدة العجوز الوحيدة، ورأى لون وجه كاساندرا يتغيّر مجدداً، قبل أن تقول كارهة: «حسناً، هناك إيف. كما أن شهرة أمي هي روبرتسن وليس ويكلز».

- أحقاً؟

ونظر إليها متسائلاً، فقالت توضح مكرهة: «لقد غيرت شهرتي عندما انتقلت إلى لندن. كثر هم من يفعلون هذا».

وتملّكه الفضول لتكتمها هذا، فسأل: «ومن هي إيف؟ هل هي امرأة عجوز من جيل أمك؟ أليست راضية عنك أم ماذا؟».

ردّت بانفعال: «يا للسماء... كلا».

وتساءل عما قاله ليؤثر فيها بهذا الشكل، فيما تابعت تقول: «تربطنا بإيف قرابة بعيدة، وقد أحضرتها أمي لتعيش معها... منذ عشر سنوات تقريباً».

- بصفة مرافقة لها؟

- جزئياً. في الواقع تعمل إيف كمعلمة أطفال في مدرسة القرية.

لم يتكلم جيك، لكنه فهم ما أخبرته به وما لم تخبره. بدا له أن كاساندرا مستاءة من وجود إيف هذه، ولعلها امرأة أصغر منها سناً أيضاً. أيّ حال، سيرحب جيك بوجودها، فستخفف من وقع وضعه الشاذ.

وصلا إلى قرية «فالكون بريدج» عند العصر.

ومرّا في الأميال القليلة الأخيرة من رحلتهما بين «تلال شيفوت»

www.elromancia.com

حيث استحال الشفق القرمزي ضوءً باهتاً. وكان عليه أن يعترف بأن في المكان سحراً وغموضاً ما.

وازداد اهتمامه بما حوله، وتملكه فروغ صبر عندما أخذت كاساندرا ترتجف وكأنها تشعر بالبرد وهي تتمتم: «لا أدري ما الذي يجعل أي شخص يرغب في الإقامة في هذا المكان. أفضّل الأضواء الساطعة والحياة المتحضرة».

- أظن أن المكان جميل للغاية. أعرف الكثيرين من سكان لندن الذي يتلهفون لترك المدينة ليأتوا إلى هنا.

نظرت كاساندرا إليه غير مصدّقة: «لا أظنك تحاول أن تخبرني أنك تفضل أن تعيش هنا بدلاً من سان فيليب؟».

كان جيك صادقاً في مشاعره. ورغم حبه للأسفار، إلاّ أنه لا يرى مكاناً أحب إليه من جزيرته مسقط رأسه. فقال: «لا. لكنني كنت أتحدث عن لندن. عليك أن تعترفي بأن ثمة عدد كبير من السكان في مساحة صغيرة للغاية».

- لكنني أحبها. عندما تعمل في الإعلان، مثلي، عليك أن تكون في قلب الحدث.

- هذا صحيح.

أقرّ بصحة كلامها رغم أنه، أثناء الأشهر الستة التي عرف فيها كاساندرا، لم يشاهد لها سوى إعلان واحد عن كريم للوجه!

اجتازا جسراً مبنياً من الأحجار يقوم فوق نهر متدفق، فشعر جيك بالسرور لعدم مواجهتهما سيارة أخرى على هذا الجسر الضيق.

- منزل أمي يقع في ضواحي القرية. تابع السير في الطريق حتى تراه. إنه يبعد قليلاً خلف بعض الأشجار.

استمر في قيادة السيارة أكثر من ربع ميل قبل أن يصلا إلى البيت، الذي غُرس جانب من طريقه بالأزهار اللامعة فيما كست أشجار

الصفصاف العارية التي بدت جرداء في الضوء الباهت الجانب الآخر.

بدا المنزل صلباً قوياً كأكواخ القرية، وكان مبنياً من الحجر، ومكوّناً من ثلاثة طوابق. كانت نوافذ الطابق الأرضي طويلة وستائرها غير مسدلة حالياً فتدفق الضوء منها لينير أرض الفناء المرصوفة بالحصى.

قالت كاساندرا من دون أن تحاول الخروج من السيارة: «حسناً، لقد وصلنا».

ولفت حول صدرها سترتها المصنوعة من الفراء الزائف مضيفة: «لا أدري إذا كانوا يعلمون أننا هنا».

قال جيك وهو يفتح بابه، ويضع ساقيه الطويلتين على الأرض: «ثمة طريقة واحدة لمعرفة ذلك».

وشعر بالبرد على الفور فمد يده إلى المقعد الخلفي يتناول سترته الجلدية ويرتديها. وفيما هو يقفل الأزرار فتح الباب الأمامي للمنزل وخرجت منه امرأة بدت وكأنها شبح أسود. لم ير منها سوى أنها طويلة ونحيلة.

وأدرك حين سمع كاساندرا تشتم بفروغ صبر، أنها ليست والدتها.

فهل هي قريبتها؟ من المؤكد أنها ليست في سن متقدمة بما يكفي لتكون مديرة المنزل التي ذكرتها كاساندرا.

أثار انتباهه صوت إغلاق باب السيارة فالتفت ليرى كاساندرا تقف على قدميها. وكان وجهها واضحاً بعكس وجه تلك المرأة.

قالت وكأنها تجيب عن تساؤله، وابتسامتها الباهتة وملامحها المتوترة تعلمه أنه لم يخطىء حين أحسّ بعدائها لهذه المرأة: «إيف».

وتابعت قائلة: «أين أمي؟ ظننتها ستخرج لاستقبالنا؟».

هبطت الفتاة التي رآها الآن بوضوح، الدرجات الثلاث متجهة نحوهما. وعندما أصبحت تحت الضوء المتسرّب من النافذة، رأى جيك أن ملامحها الشاحبة السمراء تشبه ملامحه إلى حد كبير. وأدرك

www.elromancia.com

أن عينيها سوداوان من دون شك، رغم أنه لم يستطع رؤيتهما. فهي لم تكد تنظر إليه فانتباهها مركز على كاساندرا.

لكنه رآها تتمتع بجمال دافىء غريب، فتساءل عما يجعلها تمضي أيامها في رعاية امرأة عجوز، سواء أكانت قريبة أم لا.

بقي فمها مزموماً لحظة قبل أن تتكلم. هل هي مخيلته التي تصوّر له أنها غير متحمسة لرؤية كاساندرا، كما هو حال كاساندرا لرؤيتها؟ وقالت الفتاة من دون تحية: «يؤسفني أن أخبرك أن إيلي في الفراش. لقد سقطت مساء أمس، والدكتور ماك غاير يعتقد أن ثمة كسر في كاحلها».

– يعتقد؟ ولِمَ الشك في ذلك؟ أما كان بالإمكان تصوير كاحلها وما شابه؟

– نعم، هذا ما كان ينبغي فعله، لكنها أرادت أن تكون هنا عندما تأتين. عليها أن تذهب إلى المستشفى في نيوكاسل... وقد تدبّرت أمر حضور سيارة إسعاف لتأخذها غداً.

شخرت كاساندرا غاضبة: «سيارة إسعاف؟ لماذا لا تأخذينها أنت؟».

– لدي وظيفة لا أستطيع تركها.

ونظرت إلى جيك لأول مرة مضيفة: «هلاّ تفضّلتما بالدخول؟».

٢ - الحرب الباردة

وبعد ساعة، استطاعت إيف أن تهرب إلى غرفتها لتغير ملابسها للعشاء.

فقد استقبلت ورافقت كاساندرا لترى أمها، وجاكوب أو جيك رومارو إلى غرفته، واتفقت مع السيدة بلاك وود مديرة المنزل على أن تقدم المرطبات في المكتبة.

بذلت إيف جهدها كي تبتعد عن طريق كاسي وعن طريق جاكوب رومارو، بعينيه العميقتين للغاية وملامحه السمراء الجذابة. لم تعلم ما توقعت أن يكون عليه مظهر صديق كاسي، لكن كل ما تعرفه أنها لم تستطع أن تعتبره عشيقها.

ما من شيء صبياني في مظهر جاكوب رومارو، الذي ما أن رأته واقفاً بجانب سيارته في الفناء حتى تملكها شعور غريب بأنّ متاعب لا تعرف مصدرها ستحصل.

افترضت أنها كانت تتوقع شخصاً أكبر سناً، فكاسي في السادسة والأربعين. لكن بدا جلياً أن رومارو أصغر بكثير، وهو طويل القامة، وذو جسم رياضي قوي العضلات، مليء بالحيوية. وزاد قصر شعره من بروز هذه الصفات.

بدا لها خطيراً بجاذبيته المثيرة. كان مثيراً للغاية، ومن السهل فهم ما تريده كاسي منه. زاد في انزعاج إيف أنها استطاعت هي أيضاً أن ترى ذلك.

www.elromancia.com

عبست وهي ترى صورتهافي مرآة طاولة الزينة، ثم خلعت سروالها وقميصها وتوجّهت إلى الحمام. منذ عشر سنوات، ما كانت لتهتم إن رأت عيني رجل عليها. . . كانت أكثر صلابة وحذر ودهاء. لكن في السنوات التي أقامت فيها مع جدتها، أصبحت أكثر ليونة، وتخلت عن تحفّظها المعهود.

وفي ما هي تجفف شعرها بعد الحمام أخذت تفكر في ما لديها من ملابس في الخزانة. ما من شيء مثير فيها. تنانير وقمصان وكنزات للمدرسة، وسراويل وكنزات للبيت. وللمناسبات النادرة التي كانت تخرج فيها، اشترت لها جدتها ثوباً مخملياً أسود، بكمين طويلين وفتحة عنق واسعة، وتنورة تصل إلى ركبتيها. لكنها لا تنوي إثارة فضول كاسي ولفت انتباهها بارتدائها ملابس غير مناسبة للعشاء.

تملكتها رغبة في أن تترك شعرها منسدلاً فهي غالباً ما تتركه كذلك بعد غسله. لكنها لم تشأ مرة أخرى أن تلفت الأنظار إليها، فضمت شعرها الأسود اللامع في ضفيرة واحدة ربطتها بشريطة.

وبعد تردد طويل، لبست ثوباً ذا فتحة عنق ضيقة مصنوعاً من قماش قطني.

أوشكت أن تخلعه لكنها عادت فرأت كم يناسبها. كانت قد اشترت هذا الثوب أثناء إحدى زياراتها النادرة إلى مدينة نيوكاسل، ثم وضعته في درج بعد أن ظنت أنه غير مناسب للمدرسة. والآن، فيما هي تنظر إليه مرة أخرى، وجدت أنها كانت على حق فهو يناسب فتاة مراهقة.

لكن الأوان فات لتغيير رأيها الآن، كما أنها تشك في أنها ستتناول الطعام مع ضيفي جدتها. فهي لا تريد أن تترك جدتها العجوز تأكل وحدها، أو أن تتحدث إلى كاسي بمفردها.

توقفت لحظة لتضع على جفنيها كحلاً من اللون البني الداكن وعلى شفتيها لوناً لامعاً، ثم انتعلت حذاءً من دون كعبين وتركت غرفتها قبل

أن تغيّر رأيها.

كان المنزل فسيحاً لكن إيف اعتادت عليه مع مرور السنوات فلم تعد تلاحظ ارتفاع سقفه واتساع ممراته. وفي هذا الوقت من العام، تبقى النيران مشتعلة في كل غرف الطابق السفلي المستعملة.

اتجهت إيف أولاً إلى المطبخ لترى ما تفعله مديرة المنزل. ولم تكن المرأة العجوز معتادة على الضيوف لكنها لم تبدِ الكثير من الانزعاج. وجدتها تحضّر فطائر الجبن بالكريم واللحم، فيما وضعت قطع الأفوكادو في صحون صغيرة من الفخار. قالت السيدة بلاكوود رداً على سؤال لإيف، إنّ اللايدي لن تتناول أياً من هذه السلطات. وكانت إيف تعلم أن المرأة تعني بكلامها كاسي فجدتها لم تعد تهتم بإحصاء السعرات الحرارية في طعامها هذه الأيام. وتابعت المرأة تقول: «أرجو فقط أن توافق على السمك. لقد طلبت من السيد غودارد أن يرسل لي البعض منه فأنا أعرف مدى عدم رغبتها في تناول اللحوم».

ابتسمت إيف وقالت بحرارة: «أنا واثقة من أنها ستكون وجبة لذيذة. ماذا لدينا كتحلية؟».

- حلوى الخبز والزبدة وآيس كريم. أعرف أنها تسبب السمنة، لكنها المفضلة عند السيدة روبرتسن فهي تستحق طبقاً لذيذاً حقاً، بعد سقوطها وما نتج عنه.

أومأت إيف باستحسان. فطبق السيدة بلاكوود المحضّر من الخبز والزبدة والدرّاق مشهور في القرية وهو يباع في معارض عيد الميلاد وفصل الصيف.

- أتظنين أن جدتك ستوافق عليها؟

- أظنها ستسرّ بها كثيراً، وهذا يذكرني بأن عليّ إن أذهب لأتفقد حالتها. أرجو ألاّ تكون قد سمعت ما يزعجها.

وعندما سارت نحو الباب قالت لها المرأة: «لا تقلقي عليها فجدتك

صلبة وقوية الشخصية. كان عليها أن تصبح كذلك، إذا فهمت ما أعنيه. أنا لا أقول إنها لا تحب ابنتها بل هي تحبها. لكنها تعرفها أكثر من أن تسمح لنفسها بأن تستاء مما قد تقوله كاسي».

– أرجو أن تكوني على حق.

خرجت إيف من المطبخ وتوجهت إلى السلالم ليصدمها البرد القارس في الردهة الفسيحة بعد جوّ المطبخ الدافىء، فتساءلت إن كان عليها أن تعود لتحضر سترة صوفية، لكن، عندما وضعت قدمها على أسفل السلم، أدركت أن شخصاً ما ينزل. رفعت بصرها فإذا به جاكوب روميرو فغيّرت رأيها.

كان هو أيضاً قد غيّر ملابسه للعشاء... وبسرعة، خفضت بصرها وتنحت جانباً لكي يمرّ، قبل أن تكمل صعودها. يبدو أن كاسي نبهته إلى أنهم لا يرتدون ملابس رسمية على العشاء، لكن سترته الصوفية الصفراء وسرواله الأسود يتناسبان مع أي ظرف.

كل ما عليه يعكس الثراء الذي كان سبب افتتان كاسي به، لكن هذا لا يعني أن مظهره لا يلعب دوراً هو الآخر. فقد رأت إيف من الطريقة التي تنظر بها كاسي إليه، أنها متلهفة لنيل رضاه أيضاً.

توقعت منه أن يمنحها ابتسامة ثم يتابع طريقه لكنه لم يفعل بل وقف بجانبها فانتبهت إلى طوله على الفور. فهي لطالما رأت نفسها بطول الرجال الذين تقابلهم، لكن جاكوب روميرو يفوقها طولاً.

كما أنه كان أقرب إليها أكثر مما تمنّت، ما جعلها تتماسك كيلا تتراجع إلى الخلف. هل ترى أثراً من الفكاهة القاسية في عينيه؟ أتراه يدرك التأثير الذي تركه فيها؟

قال ولكنة أجنبية خفيفة في صوته: «أريد فقط أن أشكرك لاستضافتكم لي هنا».

هل هو أميركي؟ إذا كان كذلك، فلهجته رقيقة للغاية. مهما يكن،

فذلك يزيد من جاذبيته. ولم تستطع إيف أن تكبح رجفة تملكتها. فقالت بسرعة وقد أربكها: «هذا ليس بيتي».

– أتعيشين هنا؟ قالت كاساندرا إنك معلمة في مدرسة القرية. هل هي مهنة مشوقة؟

قالت وهي تضع يدها على الدرابزين بحزم، لتوضح أن هذا الحديث انتهى بالنسبة إليها: «إنها مجرد وظيفة».

لكنه لم يهتم لهذا التلميح وسألها: «أتحبين الحياة هنا؟ هذا المكان يبدو بعيداً جداً».

– أتعني أنه بعيد عن الحضارة؟

وأدركت أنها قالت ذلك بفظاظة لا داعي لها... لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها. لعله يراها جاهلة بقدر ما هي فظة.

– أعني أنه ليس من السهل أن تقتصر صحبتك على امرأة عجوز.

وارتسمت شبه ابتسامة على شفتيه قبل أن يضيف: «من تراني لكي أمزح؟ من الواضح أنك لا تريدينا هنا؟».

تملكها الذعر وهي ترى أنها تكشف مشاعرها بهذا الوضوح، فقالت: «لم أقل هذا قط. إنّ كاسي مرحّب بها، فهذا بيتها».

– نعم. هذا صحيح. لكنه ليس بيتي أنا. أعرف هذا.

وضحك لارتباكها، فظهر الفارق بين أسنانه الناصعة ولون بشرته الأسمر.

– أنا لم أقصد هذا.

كانت تحدّق فيه لكنها أخفضت بصرها وهي تقول: «أنت تتعمد أن تسيء فهمي».

وحوّلت نظرها عن لحيته النابتة حديثاً، لكن سرواله الضيق على وركيه ترك التأثير المزعج نفسه فيها.

– أحاول ألاّ أفعل هذا.

كان بالغ القرب منها، فجاهدت لتتذكر إلى أين كانت ذاهبة قبل هذا اللقاء. قالت بسرعة، محاولة أن تتجاوزه: «عليّ... عليّ أن أذهب. ستتساءل السيدة روبرتسن عن مكاني».

- السيدة العجوز؟

ومدّ ذراعه ليمنعها من الرحيل، تراجعت بذعر فيما قال: «ليست في غرفتها. قالت كاساندرا إنها أصرت على النزول إلى الطابق السفلي لتتعشى معنا».

تمالكت إيف نفسها. علمها بأن كاسي أقنعت أمها بترك سريرها بينما هي بحاجة بالغة إلى الراحة، أمر سيء بما يكفي، لكن ما حدث للتوّ أضاف إلى توترها. وأخذت تعنف نفسها فما الذي حدث؟ من الواضح أن هذا لا يعني شيئاً بالنسبة إليه. ثم أتراها تخاف اهتمام الرجال بها بحيث تحوّل أيّ احتكاك بينهما إلى حدث عظيم؟

في الماضي، ما كانت لتهتم لذلك. في الماضي كانت لتقاوم أي محاولة للاقتراب أو التقرّب منها.

وأدركت أنه يراقبها بنظرة غريبة متأملة. لكن اللعنة عليه، فقربه منها جعل الحرارة تسري مزعجة في جسدها.

هزّت رأسها وكأن هذه الحركة البسيطة ستزيل اضطرابها، وقالت بجمود: «أين هي؟ أعني جدتي... السيدة روبرتسن».

أجابها متأملاً: «جدتي... السيدة روبرتسن في المكتبة».

ورأت أن زلة لسانها لم تمر من دون أن تُلحظ فيما قطب هو جبينه وسألها: «هل أنت بخير؟».

حينئذ تراجعت. لقد زاد الأمر عن حدّه. وهتفت متعمّدة إظهار الدهشة: «ولِمَ لا أكون؟».

وتعرّقت راحتاها بشكل غير معتاد فأردفت: «أرجو المعذرة. سأذهب لأرى إن كانت بحاجة إلى شيء».

إذا ظنت أنها ستهرب منه، فقد خاب أملها إذ رافقها نحو باب المكتبة المفتوح أمامهم. كانت هذه مكتبة جدها في حياته، أما الآن فقد تحولت إلى مكتب وغرفة جلوس معاً.

كانت غرفة مريحة حيث الكتب تملأ الجدران، ورائحة الجلود القديمة تفوح في الجو. كانت النار تشتعل في المدفأة الواسعة القديمة بينما جدتها تجلس على مقعد بذراعين بجانبها، وقدمها المصابة مرفوعة على كرسي منخفض.

وكانت كاسي تجلس على الكرسي المقابل، وهي ترتدي سروالاً من الحرير الرقيق وسترة ضيقة بلون أزرق مناسب فبدت شقراء أنيقة. ثمة من جرّ كرسي جدها من خلف المكتب ليضعها قرب كرسي كاسي، وهو يفكر في جاكوب روميرو كما يبدو. وهذا يعني أن عليها أن تجلس على الكرسي الخشبي الذي اعتاد أن يجلس عليه السيد تريفيث كلما جاء ليتحدث عن الأملاك.

عندما همت إيف بالجلوس، قالت لها الجدة: «اسكبي لنفسك كأساً من العصير يا عزيزتي».

فتدخل جاكوب روميرو قائلاً: «سأحضره لك».

وأشار إلى الكرسي الذي بجانب كاسي مردفاً: «اجلسي هنا. عظامي مكسوة باللحم أكثر من عظامك».

أرادت أن تعترض، لكن هذا التصرّف سيبدو عديم التهذيب، فقالت: «شكراً».

جلست والتفتت إلى جدتها متجاهلة الغيظ الذي ينبعث من المرأة بجانبها، وسألتها: «كيف تشعرين؟».

أجابت الجدة: «أشعر بتحسن كبير هذا المساء».

لكن وجنتيها المتوردتين في العادة بدتا شاحبتين، وأضافت قائلة: «لا تظهري هذا الاستنكار يا عزيزتي، فأنا لم أنزل من الطابق العلوي

www.elromancia.com

وحدي. لقد حملني السيد روميرو».

منعت إيف نفسها من إلقاء نظرة إعجاب عليه فجدتها لم تكن خفيفة الوزن. وبما أنه حملها من غرفتها ونزل بها إلى الأسفل، فلا بد أنه قوي. وتمتمت بلهجة عرجاء: «هممم... هذا حسن جداً... منك».

وتناولت منه كأس العصير التي أحضرها لها، واعية إلى مباهاة كاسي به.

قالت كاسي وهي تنظر إليه بابتسامة حميمة دافئة: «جيك قوي للغاية لأنه يمارس الرياضة كثيراً».

المعنى المزدوج لكلامها كان واضحاً، لكن موضوع تلميحها لم يجب بالمثل بل قال: «أسرتي تملك شركة لتأجير السفن في سان فيليب فكنت أحمل الصواري وأجر حبال الأشرعة منذ طفولتي. لذا، فحمل أوزان خفيفة مثلك يا سيدة روبرتسن، ليس مشكلة».

بدا السرور على إيلي وتمتمت: «سان فيليب؟ هل هذه في أسبانيا؟».

واستوعبت إيف فكرة أنه ليس أميركياً.

فقال: «إنها جزيرة من جزر الكاريبي يا سيدتي».

وعلى الفور ارتسمت في مخيلة إيف صورة لرمال بيضاء وبحر أزرق وأشجار نخيل. لا عجب في أنّ بشرته سمراء داكنة لكثرة ما لوّحتها الشمس.

وقالت كاسي بغرور: «أسرة جيك تملك الجزيرة يا أمي. لقد تقاعد أبوه طبعاً، وجيك يدير الشركة بنفسه الآن».

- ما أجمل هذا.

وتملك إيف السرور لأن جدتها لم تتأثر بهذا التصريح الذي ينمّ عن ثراء غير محدود.

وتابعت الجدة تقول: «إذن، ما الذي تفعله هنا يا سيد روميرو؟ أظن

أنّ هذا الوقت من السنة هو الذي يذهب فيه الناس إلى جزر الكاريبي».

فأجاب بأسف: «هذا صحيح طبعاً. على أيّ حال أنا مرغم على قضاء بعض الوقت في أوروبا».

ويبدو أن كاسي أرادت التأثير في أمها، فقالت: «لدى جيك أعمال في كافة أنحاء العالم. لقد تعارفنا السنة الماضية في «معرض باريس للمراكب»، أليس كذلك يا حبيبي؟».

فقالت الأم بجفاء: «ما كنت أعرف أنك تهتمين بالمراكب، يا كاسي. لطالما كان يتملكك دوار البحر كلما أخذناك أنا ووالدك في نزهة بحرية».

قالت كاسي بحدة: «كان هذا منذ سنين».

وتدخل روميرو باسماً لمظهرها العدائي: «كانت كاساندرا واحدة من المضيفات في المعرض، وقد نجحت تماماً في مهمتها تلك».

فقالت كاسي باشمئزاز: «كان ذلك مجرّد عمل عابر فأنا لا أقوم بأعمال كهذه».

ويبدو أن الأم أدركت فجأة أن لديها اليد العليا، فقالت لها: «لا تفعلين؟ ذكريني يا كاسي بآخر دور لعبته؟».

ووجدت إيف نفسها تشعر حيالها بأسف وبعطف غير متوقعين، فقالت: «أنت مثلت دوراً في (كبرياء وتحيّز) أليس كذلك يا كاسي؟ أظنك لعبت دور إحدى الأخوات بينيت».

أجابتها كاسي وهي تلقي عليها نظرة حذرة: «أنت تعلمين أنني لم ألعب دور إحدى الأخوات بينيت».

لكن أمها ابتسمت وقالت مستمتعة بهذه اللحظة: «ربما السيدة بينيت؟ لا يمكن أن يختاروك للعب دور الفتاة الساذجة، إذا كان هذا هو المصطلح الذي يستعملونه هذه الأيام».

تدخلت إيف في الحديث فغيّرت الموضوع: «هل أمضيتما أنت

www.elromancia.com

والسيد روميرو وقتاً طويلاً في باريس يا كاسي؟».

حاولت إيف أن تتدخل بعد أن أدركت أن جدتها لن تتراجع، وبدا هذه المرة أن كاسي ممتنة لتدخلها هذا، فأجابت: «أيام عدة فقط. ووعدني جيك بأن يبحث عني عندما يقصد لندن. وكان هذا منذ ستة أشهر، أليس كذلك يا عزيزي؟».

- شيء من هذا القبيل.

ولاحظت إيف أن روميرو لا يتجاوب مع كلمات التدليل والتحبب المتكررة التي توجهها كاسي إليه. لكنها فوجئت حين التفت إليها قائلاً: «واسمي هو جيك أو جاكوب إذا كنت تفضلين».

وإذ رأت الأعين موجهة إليها، اضطرت لأن تكون مهذبة فقالت: «نعم. حسناً».

بعدئذ، حوّلت نظرها بعيداً عن وجهه الجذاب، وابتسمت لجدتها: «سأذهب إلى المطبخ لأرى أين أصبحت السيدة بلاكوود في عملها. هل تريدين أن أحضر لك شيئاً؟».

فقالت كاسي على الفور وهي تمدّ لها يدها بكأسها: «نعم، يمكنك أن تحضري لي شراباً آخر. سأشرب الصودا إذا كان لديكم».

والتفتت إلى أمها مردفة: «اختيارك العصير لم يناسب ذوقي يا ماما».

فردت أمها بحدة: «كما أن أسلوبك لا يناسب ذوقي يا كاسي».

عندئذ، تمنت إيف لو لم تعرض الذهاب إلى المطبخ لتتفقد الطاهية، فجوّ الغرفة ينذر بالسوء كما أنها خافت مما قد تقوله جدتها الآن.

- أنا لست طفلة، يا أمي. وأنا لا أحب عصير التفاح وأنت تعلمين هذا.

لا بد أن الكل لاحظ أن كلمة (ماما) تحوّلت إلى مصطلح بارد للغاية.

فقالت الأم متهكمة: «لقد نسيت ذلك لأن زياراتك لنا نادرة للغاية، يا كاسي. ولا يُفترض بي أن أتذكر كل شيء».

توترت شفتا كاسي وتكهنت إيف بأنها تعض لسانها. كان عليها أن تدرك أنه من عدم الحكمة أن تخاصم أمها في حضور ضيف، لا سيّما إذا أرادت أن تحظى بإعجاب هذا الضيف. ولكي تتجنب مزيداً من الجدل، وضعت إيف كأس كاسي الفارغة على الصينية، وأخفت زجاجة الصودا في أسفل الخزانة، واستدارت لتقول لاهثة قليلاً: «يبدو أن ما من صودا هنا، يا كاسي. ثمة زجاجة في المطبخ فلِمَ لا تأتين معي وتأخذينها؟».

التفتت كاسي إليها بوجه لا يعكس أيّ مودّة. كانت إيف واثقة من أنها تودّ لو تقول لها (ولماذا لا تحضرينها أنت؟).

لكن الأدب والتعقّل انتصرا، فتمتمت تستأذن من روميرو ثم هبّت واقفة وسارت إلى حيث وقفت إيف عند الباب.

انتظرت كاسي حتى أغلقت الباب خلفهما لتتكلم مرة أخرى ولكن بكلمات قاسية متهمة: «ما اللعبة التي تلعبينها؟ لقد رأيت زجاجة الصودا على الصينية عندما كانت مديرة المنزل تسكب لنا جميعاً كأساً من العصير كما أصرّت أمي. أتظنين أنني لم أرك وأنت تخفينها في الخزانة؟ ويدهشني جداً أن أحداً لم يرك».

التوت شفتا إيف وهي تقول: «كان عليّ أن أدرك أنك لن ترضي عن أي عمل أقوم به. لكني كنت أفكر في أن أجنبك ارتكاب حماقة تندمين عليها».

- ماذا تعنين؟

حملقت إيف فيها: «أحقاً لا تعلمين؟ ألا تدركين أن أمك تنتظر فرصة لكي تفجر هذه الهالة التي أنشأتها حول نفسك؟ أنت حمقاء إذا ظننت أنها نسيت... أي شيء».

www.elromancia.com

- لا شك في ذلك ما دمت تشجعينها سراً.

هزّت إيف كتفيها: «إذا أردت أن تظني هذا بي، فلا أستطيع أن أمنعك».

- حسناً، وما الذي يُفترض بي أن أظنه غير ذلك؟

وضغطت بقبضة يدها اليمنى على راحتها اليسرى، ثم عادت تقول بلهجة أقل عنفاً: «لا أظنها ستقول شيئاً، أليس كذلك؟».

فقالت إيف بصدق: «إذا أصرّيت على مضايقتها، فلا أدري ما قد تقوله».

فقالت كاسي متذمرة: «لكنها تضايقني. هل من المفروض أن أوافق على ما تقوله من دون الدفاع عن نفسي؟».

توجهت إيف نحو المطبخ: «لا يمكنني أن أجيب عن هذا. أظن أنّ هذا يعتمد على كم الأشياء التي تريدين أن يعرفها ضيفك عنك».

توتر فم كاسي وسألت: «هل تهددينني؟».

نظرت إليها إيف من فوق كتفها غير مصدقة، وأجابت: «لا! ولماذا أهددك؟ أنا لا يهمني ما تفعلينه. وكيفية إدارتك لحياتك لا تعنيني بشيء».

فقالت ساخرة: «يا للآنسة المحتشمة! لا أدري إذا كانت أمي تعرف أيّ نوع من الحياة كنت تعيشين قبل أن تصل إليك جنية عرابة لتخطفك وتأتي بك إلى هنا».

- إنها تعلم.

ومن دون أن تكترث إيف بما إذا كانت كاسي تتبعها، دفعت باب المطبخ لتدخل إلى حيث الدفء والطمأنينة.

- أحقاً تعلم؟

ودخلت خلفها وقد صممت كما يبدو على مضايقة إيف إن كانت لا تستطيع مضايقة أمها: «حسناً، لا تتحدثي إليّ بهذه الغطرسة. نحن نعلم

أنك قد تفعلين أي شيء لتحصلي على رجل مثل جيك ليساندك في حياتك».

شهقت إيف. لقد اعتادت أن تسمع كاسي تتكلم أمام مديرة المنزل السيدة بلاكوود وكأنها غير موجودة. لكنها هذه المرة، تجاوزت الحد، فقالت بحدة: «أنت مخطئة. أنا لم أتاجر بعرضي قط لأحصل على أي رجل، كاسي. إما أن تسحبي كلامك وإما أن أنشر كل غسيلك القذر».

www.elromancia.com

٣ - لما هذه العدائية؟

كان الوقت لا يزال مبكراً وبارداً، عندما نزل جيك من سريره. لم تكن التدفئة المركزية تعمل بعد، فسار إلى النافذة ينظر منها إلى العالم الرمادي اللون، الذي لا يبدو منه سوى خيط فضي، وصقيع.

لقد نام وحده ما أثار غيظ كاساندرا. كان يعلم أن أحد أسباب دعوتها له إلى هنا هو أن تجعل علاقتهما تتقدم إلى مرحلة أخرى، لكنه لم يشأ ذلك. وعندما أعطتهما أمها غرفتين منفصلتين أدرك أنها غير موافقة على علاقة غير شرعية تحت سقفها.

لقد اتصلت كاساندرا به على هاتفه الخلوي. ويبدو أنها رأت أن الجو أبرد من أن تتحمله عند اجتياز الممرات الطويلة في المنزل بينما هي غير واثقة من تجاوبه معها، فهي لا تحب كلمة (لا) جواباً.

استرعى انتباهه وميض من الضوء في الفناء. وكانت غرفته تطل على الناحية الخلفية من المنزل. وعندما أخذ يراقب الضوء، رأى شبحاً يتسلل من المنزل ثم يتجه إلى مخازن الغلال والمباني الخارجية التي ظهرت في الظلمة منذ قليل.

إيف.

قوامها الطويل الرشيق لم يكن خافياً عليه. وكانت ترتدي سروالاً من الجينز وسترة ضخمة، فيما ضفيرتها السوداء تتأرجح على كتفها. كانت تتحرك برشاقة طبيعية أثارت في أعماقه مشاعر غير مرغوب فيها، فهذه حماقة لأن جمالها لم يكن من نوع جمال كاساندرا... فملامحها

متناسقة، وفمها كبير كما أنّ أنفها طويل. ومع ذلك كانت تملك فتنة غير عادة، كما تختزن عيناها الرماديتان ثروة من المعلومات. وجد نفسه يريد أن يرى ابتسامة على شفتيها الممتلئتين المثيرتين، فيشعر بدفئها يكتنفه هو بدلاً من تلك المرأة العجوز المحبة للجدل والنقاش التي تخدمها.

لكنه لم ينجح بعد، فلسبب ما نفرت منه منذ البداية، ورغم محاولاته، لم ترتح إليه. كانت مرغمة على أن تتصرف بأدب أثناء العشاء الذي تناولوه في جوّ متوتر بسبب كاساندرا وأمها. لكنه كان واعياً لاستيائها طوال الوقت.

أخذ يفكر عابساً بأنّ عليه أن يتصرف بشكل أفضل، لكنه لم يفهم حقاً لما ينبغي عليه ذلك. وفجأة ترك النافذة واتجه إلى الحمام حيث استحم، وغسل أسنانه ووجهه بسرعة، ورطب شعره بيديه. وعاد إلى غرفة نومه عابساً في المرآة.

لبس أقدم سروال جينز لديه، وارتجف قليلاً عندما لامس القماش البارد جلده الدافىء، ثم تناول الكنزة الكشمير التي كان يلبسها الليلة الماضية وارتداها.

وبعد دقيقتين غادر غرفته، واضعاً سترته الجلدية على كتفه فيما حذاؤه يحدث صريراً خفيفاً. وفي الطابق السفلي، تردد وهو في طريقه إلى الردهة الباردة، غير واثق من الاتجاه الذي عليه أن يسلكه. وما لبث أن تذكر الاتجاه الذي قدمت منه إيف الليلة الماضية، فسار في الممر الذي كان يرجو أن يقوده إلى الجهة الخلفية للمنزل.

وعندما فتح الباب الذي في آخر الممر، وجد نفسه في المطبخ. نظرت مديرة المنزل إليه، فأدرك أنه آخر شخص توقعت أن تراه.

هتفت: «سيد روميرو؟».

ثم سكتت مترددة، وما لبثت أن تذكرت أن عليها أن تكمل عملها،

www.elromancia.com

فأسرعت تضع صينية الخبز الطازج على المائدة، وأغلقت باب الفرن: «هل من خدمة أسديها لك؟».

منحها ابتسامة آسفة، فهو لم يتوقع أن يجد أحداً: «كنت... كنت أريد أن أتمشى. أردت أن أذهب إلى خلف المنزل».

- آه... يمكنك أن تمرّ من هنا.

وأشارت إلى باب آخر: «هذا يؤدي إلى غرفة المؤونة وفيها باب آخر يؤدي إلى الخارج».

وسكتت لحظة ثم عادت تقول: «لكن هل أنت واثق من أنك تريد أن تخرج الآن؟ الجو بارد جداً».

كان يعلم ذلك، وسرّه أنه أحضر سترته معه. قال وهو يشير إلى الخبز: «لا بأس. خبز طازج؟ لا أستطيع الانتظار حتى الإفطار».

فقالت بخجل: «يمكنك أن تأخذ معك واحدة إذا شئت».

اختار رغيفاً ذهبي اللون وقال: «هذا رائع».

ثم ضحك بعد أن أحرق شفتيه وهو يتذوّقه قبل أن يتوجّه إلى الباب.

في الخارج اكتشف أن مديرة المنزل لم تكن تمزح فالجوّ لم يكن بارداً وحسب بل قارساً. وضع رغيف الخبز بين أسنانه ليرتدي سترته ثم سار في الاتجاه الذي سلكته إيف.

لم يطل به الأمر حتى وصل إلى الفناء. رأى مبان منخفضة تغطي ناحيتين من فناء مبلط بالأحجار، ومخزن غلال ضخم تسرّب الضوء الذي رآه من بابه المشقوق.

شك في أن تسرها رؤيته، لكنه اجتاز الفناء على أيّ حال وهو لا يزال يمضغ الخبز الطازج المحمص.

كانت إيف تذري تبناً نظيفاً وتضعه في عربة يد، وقد شمّرت عن ساعديها. وعندما انحنت على الكيس الضخم المسند إلى الجدار، ارتفع قميصها ليكشف شيئاً من خصرها. ولكن لم يظهر عليها أنها

شعرت بالبرد. يبدو أن ما تقوم به يبقيها دافئة. لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الإجفال عندما طعنت كومة التبن بالمذراة بعنف.

قالت برقة: «أخ...». وشعر بالرضى لرد فعلها إذ أجفلها، بينما توهجت وجنتاها الشاحبتان.

انتصبت واقفة بحركة آلية وهي تسأله: «ماذا تفعل هنا؟».

ومرة أخرى سمع نبرة نفاد الصبر في صوتها.

- فكرت في إلقاء نظرة على الأنحاء.

وأنهى أكل الرغيف ونفض يديه من الفتات، وهو يتابع: «ماذا تفعلين؟ قالت كاساندرا إن أمها باعت الجياد كلها».

- نعم، ما عدا واحداً.

واستاءت من ظنه أن بإمكانه أن يطرح عليها ما يشاء من الأسئلة فتجيبه. فواجهته قائلة: «أين كاسي؟».

هزّ كتفيه وهو يستند إلى الجدار: «في سريرها، كما أظن».

وفتح أزرار سترته وشبك ذراعيه مدفئاً أصابعه تحت إبطيه.

اشتدت قبضة إيف على المذراة. لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تلاحظ أن سرواله الجينز الضيق مهترىء. وتساءلت عما يجعل رجلاً ثرياً جداً يلبس سروالاً قديماً بهذا الشكل.

لم تكن واعية إلى كيفية تقييمها له، حتى عادت عيناها إلى وجهه. كان يراقبها. ولكي تريه أنه لم يشغل بالها، تمتمت: «ألا تعلم؟».

فضاقت عيناه: «لا أعلم ماذا؟».

- ألا تعلم أين كاسي؟ ظننتك تعلم.

- هل تعنين أننا كنا معاً؟ حسناً، أكره أن أخيّب ظنّك، لكنني نمت وحدي بشكل جيد جداً.

ولم يكن كلامه هذا صادقاً تماماً.

فابتلعت ريقها: «حسناً، هذا جيد. علي أن أتابع عملي الآن».

www.elromancia.com

وعادت إلى مهمتها تهاجم التبن بنشاط متجدد فقال: «دعيني أساعدك».

نظرت إليه غير مصدقة: «لا... لا أظن ذلك».

- لماذا لا؟

- لأنك...

وبللت شفتيها قبل أن تقول بارتباك: «إنها مهمة قذرة».

- أحقاً؟

- نعم. أنا واثقة من أنك لا ترغب في أن تتعرّق وتشعر بالحرّ.

قال ساخراً: «أنا أتعرّق وأشعر بالحرّ طوال الوقت».

لكن ما لبث أن أضاف وهو يرى ما قد تفكر فيه: «أعني العمل على المراكب طبعاً».

قالت وهي تشعر بأن وجهها لن يستعيد هدوءه مرة أخرى: «أعلم هذا».

ابتسم ابتسامة عريضة تعني أنه لم يصدقها: «لا بأس. لم أشأ أن تسيئي تفسير كلامي».

- اسمع، لما لا تذهب لتتمشى وتتركني أنهي عملي؟

- لأنني أريد أن أرى الحصان الذي تقومين بكل هذا العمل من أجله.

وخلع سترته وألقاها على مقعد قريب ثم تقدم وأخذ منها المذراة: «أترين؟ هذا ليس صعباً».

أخذت نفساً عميقاً وتنحّت جانباً بشيء من الاستياء، ثم قالت تنبهه: «هذا لن يعجب كاسي».

ألقى عليها نظرة ذات معنى: «وهل يهمك هذا؟».

ثم أخذ ينقل التبن إلى عربة اليد بطاقة مدهشة.

- أتعلمين؟ أنا أستمتع بهذا العمل. فقد مضى زمن طويل وأنا

جالس في مقعدي لا أفعل شيئاً.

فكرت في الاحتجاج مرة أخرى، لكن ما قاله شتت ذهنها، وقالت: «ظننتك معتاداً على العمل اليدوي».

وضع المذراة من يده وقال: «هذا صحيح. لكني أمضيت الأسابيع الستة الماضية في التجوال في أوروبا متفقداً أوضاع العمل، ساعياً لإبرام عقود، مستعملاً القلم معظم النهار».

ترددت إيف. تلهفت لأن تعلم ما إذا كانت كاسي تجول معه، رغم أنها لم ترَ لما يهمها هذا الأمر، وسألته: «ألم يكن معك من يساعدك؟».

- لِمَ لا تسألينني مباشرة عما إذا كانت كاساندرا ترافقني؟ هذا ما تريدين معرفته أليس كذلك؟ هل أوكلت إليك والدة كاساندرا مهمة اكتشاف نوايا ي نحو ابنتها؟

- كلا. وسواء أكانت كاسي معك أم لا، فهذا ليس من شأني.

وابتسم لها فاكتسحتها موجة من الافتتان الفطري غير المرغوب فيه وأشاحت بوجهها بسرعة عندما قال: «حسناً، لمعلوماتك الخاصة، بقيت كاساندرا في لندن».

انتصبت في وقفتها ثم قالت من دون أن تنظر إليه: «على أيّ حال، هذا التبن يكفي. إذا أردت أن ترى ستورم، فمن هنا».

وخرجت من الباب بينما ارتدى هو سترته، شاعراً بانزعاج غامض لأنها تعامله بعدم اكتراث. ما الذي يبرر هذه المعاملة الباردة له؟، فليدع هذا. فقد أظهرت برودة حياله وعدم اكتراث منذ مجيئه إلى هنا، ولم يعجبه ذلك.

حسناً، إذا أرادت عربة اليد، فلتأخذها بنفسها. وزرر سترته ثم تبعها إلى الخارج. كانت السماء صافية تماماً لكن الجو ما زال بارداً، فدس يديه في جيبه وهو يقتفي أثرها في الفناء.

www.elromancia.com

كانت الاسطبلات دافئة بشكل غريب، رغم أنها لا تحوي سوى حصان واحد. لعل للصحبة دوراً في ذلك، إذ بدا جلياً أن إيف تفضّل الحصان عليه.

كان ستورم في آخر الاسطبل. ويبدو أنه سمع وقع أقدامهما فأخذ يصهل مرحباً بهما. كان حصاناً كستنائياً صلب المظهر، يتميّز بقعة بيضاء بين عينيه، وبعينين ذكيتين.

أخرجت من جيبها تفاحة صغيرة وجعلت الحصان يأخذها من يدها ويمضغها بسرور، مظهراً أسناناً جيدة بالنسبة إلى عمره إذ لاحظ جيك أنه ليس فتياً.

- كم عمره؟

نظرت إليه هازئة: «إنها أنثى، وعمرها ثمانية وعشرين عاماً. جد.. السيدة روبرتس اعتادت أن تستعملها لتحسين النسل عندما كانت أصغر سناً».

تراجع جيك ليدعها تخرج الفرس، فاغتنمت الفرس الفرصة لتقرص أذنه. لم تعضه بل كانت رقيقة بشكل مدهش، ورأى إيف تنظر إليها بشيء من الدهشة.

قال متفكهاً لما حدث: «يبدو أنها أعجبت بي».

قالت بحرارة: «أتصوّر أن هذا حال الإناث معك عادة».

وتوهّج وجهها عندما أدركت ما قالته فقال ساخراً: «لكنه ليس حالك».

وسبقته مع الفرس فالتفتت إلى الخلف وقالت: «أنا لا أحبك ولا أكرهك، يا سيد روميرو».

لكن جيك شعر بأن عدم مبالاتها به لا يبلغ نصف ما تدعيه.

وعندما ألقت نظرة عليه قال: «يسرني أن أسمع هذا، إنه يمنحني بعض الأمل».

- الأمل... بماذا؟

- بأنك قد تشعرين نحوي ببعض المودة. إلى أين نحن ذاهبان الآن؟

قالت وهي تركز اهتمامها على الفرس لتتجنب مواجهة نظراته مرة أخرى: «سأقود ستورم إلى المرعى».

وصمتت لحظة ثم أردفت: «ستتساءل كاسي أين عساك تكون».

نظر إلى ساعته وعبس: «في السابعة وعشر دقائق صباحاً؟ أشك في ذلك».

شدّت إيف اللجام ما جعل الفرس ترد رأسها إلى الخلف احتجاجاً: «بل هذا مؤكد».

- لأنني نمت معها؟

ومرة أخرى رأى أنه جعلها ترتبك. لكنه لاحظ أيضاً كيف حاولت إخفاء ارتباكها هذا بأن تسأله بعنف: «حسناً، أنت فعلت هذا، أليس كذلك؟».

وتمنى لو يأخذ وجهها بين راحتيه ويعانقها.

لقد سبق وعرف رائحتها. يبدو أنها لم تستحم قبل أن تأتي لإخراج الفرس، إذ امتزجت رائحة النظافة في جسدها الأنثوي بأثر من رائحة عرقها، فوجد ذلك مثيراً إلى درجة لا تصدّق. لكن هذا لم يكن شعوراً حسناً. تباً! فقد جاء إلى هنا مع امرأة وها هو ذا يرغب في امرأة أخرى. ماذا حدث له بحق الجحيم؟

في الواقع، لم يشأ المجي إلى هنا، وقد وجد في هذه الحقيقة بعض التعزية. لكن كاساندرا ستموت غيظاً إذا ارتابت في أنه منجذب إلى مرافقة أمها. لقد أمضت أكثر من ستة أشهر وهي تحاول دفعه نحو الالتزام بعلاقة معها، لكنه استطاع أن يتجنب أي تورّط معها.

كان يشعر نحوها بمودة بالغة، فهي رقيقة جيدة عندما لا تصرّ على

www.elromancia.com

التدخل في شؤونه. وكان يسرّه أن ترافقه إلى معظم الحفلات والمناسبات الاجتماعية التي يدعى إليها في لندن. ولكن هذا... هذا لا يحتمل. وتخلى عن فكرة مساعدة إيف في تنظيف مربط الفرس ونثر التبن النظيف، ودس يديه في جيبيه ثم سألها بفتور: «هل هذا مهم؟ على أيّ حال، من الأفضل أن أذهب وأجعلها تعلم أنني لم أنسها».

وكأن هذا ممكن... كما فكرت إيف بألم وهو يغادر الاسطبل. وأدركت أنه مهما كان شعوره نحوها، فستحرص كاسي على ألاّ تدعه ينساها بسهولة.

تمنت لو أنها لم توبخه. ورغم علمها بأنها تسبب لنفسها المتاعب إلاّ أن روميرو يثير فيها شعوراً ما. ورغم تصميمها على ألاّ تدعه يؤثر عليها، إلاّ أنها استمتعت بتهجّمها الكلامي عليه وبوجودها معه.

كم يثير هذا الغثيان.

٤ - الصراع الخفي

صعد جيك إلى غرفته حيث اغتسل وغير ملابسه، ثم عاد إلى الطابق السفلي. وكان يتناول فطوره في غرفة الطعام، عندما دخلت كاساندرا.

لم يكن ثمة أثر لإيف. ولكن بما أن الساعة تجاوزت التاسعة، رجّح أن تكون قد ذهبت إلى عملها. كانت السيدة روبرتس لا تزال في غرفتها تريح كاحلها، وشعر بالخجل لترحيبه بهذه الفرصة التي تمنع التصادم بين الأم والابنة.

دخلت كاساندرا إلى الغرفة وهي ترتدي عباءة من الحرير الأحمر كانت قد أخبرته أن أحد المعجبين أحضرها لها من هونغ كونغ. وتملك جيك الشك في أن تشعر بالدفء في مثل هذه الملابس في هذا الوقت من السنة. لكنه كان يعلم أنها تحب هذا الثوب فهي تراه يناسب بشرتها الناصعة.

هتفت به بفظاظة: «حبيبي... أين كنت؟ جئت إلى غرفتك هذا الصباح ولم أجدك، فتملكني القلق. وها أنتذا هنا الآن تأكل البيض واللحم وكأن ما من شيء يشغل بالك».

- وهذا صحيح.

وكان قد وقف لدخولها، لكنه عاد إلى مقعده. لم يكن من عادته أن يتناول فطوراً ثقيلاً، لكن يبدو أن السيدة بلاكوود ترى أنه بحاجة لأن يسمن ولم يقوَ على الرفض. قال: «هذا طعام جيد».

فقالت بانزعاج: «إنه سيء لشرايينك. والآن، أين كنت؟».

www.elromancia.com

- متى؟

كان يتصنّع الغباء لكن كاساندرا لم تدعه وشأنه. فقالت: «عندما جئت إلى غرفتك. ولا تخبرني أنك كنت في الحمام فقد ألقيت نظرة عليه».

أنهى جيك آخر لقمة من طعامه، ثم وضع الشوكة والسكين في صحنه الفارغ وقال: «لقد خرجت».

لم تعلّق فسألها آملاً أن يحوّل اهتمامها: «لماذا لم تلبسي ثيابك وتخرجي لتري حال أمك هذا الصباح؟».

فأجابت بمرارة: «وهل هذا يهمني؟ إنها لا تهتم بي مثقال ذرة. هل سمعتها كيف أخذت تسخر مني ومن مهنتي كممثلة؟ تراها تستغل كل فرصة لتحقرني فقط لأنني أعقل من أن أرضى بالحياة في مكان كهذا».

هزّ جيك كتفيه. إنه لا يستطيع أن ينكر أن السيدة روبرتس تستفز ابنتها، لكنه لا يعرف خلفيّة الأسرة وماضيها، لهذا كان صعباً عليه أن يكوّن فكرة واضحة. إيف هي الوحيدة التي يشعر بالأسف من أجلها وهو يراها عالقة بين امرأتين مصرتين على إيذاء بعضهما البعض. ومع ذلك دافعت إيف عن كاساندرا ضد مستخدمتها، بالرغم من الطريقة التي تحدثت بها عنها هذا الصباح.

قالت كاساندرا تجيبه: «على أيّ حال، ما زال الوقت مبكراً لزيارة أمي».

بدا واضحاً أن في ذهن كاساندرا أموراً أخرى. التفت حول المائدة إلى حيث كان يجلس، ثم وقفت أمامه قائلة بدلال: «لماذا لا نعود إلى الطابق العلوي؟».

فردّ بفتور: «اذهبي واستحمي بماء بارد، يا كاساندرا. أريد أن أخرج لأرى شيئاً من الريف هنا. إذا شئت أن تأتي معي، فاعلميني. أمنحك أربعين دقيقة لترتدي ملابسك».

اشتبه في أنها شتمته، لكنه لم يتأكد من ذلك. على أيّ حال، تركته وسارت نحو الباب وهي تقول: «أنا بحاجة إلى ساعة على الأقل. أتظن أن بإمكانك أن تلهو أثناء هذا الوقت؟».

لم يكن يوماً حسناً، كما هو يوم الجمعة عادة. فقد وجدت إيف صعوبة في أن تركز على عملها وأدرك الأطفال ذلك فاستغلوا الظرف للمشاغبة حتى اضطرت للصياح بهم بشدة لكي تعيد النظام إلى الصف.

وعندما دُعيت إلى اجتماع الموظفين بعد انتهاء الدروس لم تتحسن الأمور. لم يحدث قط أن عقدوا اجتماعاً بعد ظهر يوم الجمعة، فمعظم المعلمات في هذه المدرسة الابتدائية الصغيرة يتلهفّن للعودة إلى بيوتهن في نهاية الأسبوع. لكن وجه مديرة المدرسة بدا جاداً للغاية حين انضمت إليهن في قاعة الموظفين فانقبض قلب إيف وتملكها شعور داخلي بأن مهما كان ما ستسمعه، فهو لن يعجبها.

وكانت على حق، إذ يبدو أن السيدة بورتمان علمت بعد ظهر هذا اليوم أن مدرسة فالكوني بريدج هذه، ستُضم إلى مدرسة أكبر في إيست ردزديل بعد أن رأت الإدارة في المنطقة أن عدد الطلاب في مدرستهم غير كافٍ ليبرر نفقاتها. وقد أشارت المديرة إلى أن الجهود ستُبذل للعثور على وظائف جديدة للمعلمات من الآن حتى نهاية الفصل الدراسي حين تقفل المدرسة أبوابها نهائياً.

وعندما أنهت السيدة بورتمان حديثها، ساد الصمت المطبق في الغرفة وكان الطاقم التعليمي في مدرسة فالكوني بريدج يقتصر على النساء اللواتي اعتبرن أنفسهن أسرة واحدة تقريباً.

قالت جيني سالتر بقلق: «ولكن هل يمكنهم أن يفعلوا هذا؟ أظنني قرأت في مكان ما أن الأهل يعارضون هذا الإقفال».

- هذا صحيح. لكنني أشك في أن الأهالي مستعدون لمواجهة وزارة التعليم. ببساطة، عددهم لا يكفي لتشكيل فريق يذكر.

سألت إيف وقلبها يغوص لفكرة أن عليها أن تبحث عن عمل جديد: «إذن المدرسة تقفل أبوابها في عيد الفصح؟».

فقالت السيدة بورتمان: «رسمياً نعم. لكنني بطبيعة الحال لا أتوقع منكن جميعاً أن تنتظرن حتى ذلك الحين لتبحثن عن وظائف أخرى. كما أن هذا الخبر سرعان ما ينتشر فيبدأ الآباء بالتفتيش عن مدارس جديدة. لن يقبلوا جميعاً أن يسافر أطفالهم يومياً إلى مدرسة إيست ردزديل، لا سيّما إذا وجدوا مدرسة خاصة في الجوار».

فتمتمت جيني عابسة: «لا بأس بذلك إذا كان الواحد منا قادراً على أن يدفع نفقات المدرسة الخاصة».

وضعت إيف يدها على كتفها تواسيها وقالت محاولة أن تبدو متفائلة: «ما زال أمامنا أشهر. قد تجدين عملاً في ردزديل وتتمكنين من أخذ أولادك إلى المدرسة بنفسك. من يعلم؟».

لكن جيني رفضت أن تكون متفائلة، ولم تستطع إيف أن تلومها فالعثور على عمل في هذه الأنحاء صعب جداً.

وبالتالي، كانت كئيبة وهي تعود إلى البيت عصر ذلك اليوم، ولم يكن مزاجها حسناً عندما سبقتها السيارة المستأجرة في الدخول من البوابة. كان روميرو خلف عجلة القيادة، فيما كاسي تجلس بجانبه بزهو. رفعت يدها بفتور وكأنها أميرة، وإيف مجرد خادمة لديها.

أكدت إيف لنفسها غاضبة أنها ليست غيورة. فهي لم تحصل على شيء من كاسي في الماضي ولا ترغب في أيّ شيء منها الآن، لكنها تتمنى أحياناً لو تعترف هذه المرأة بمسؤولياتها.

أيقظها أزيز الفرامل من تأملاتها. كانت السيارة قد توقفت وأخذت تتراجع نحوها. يا إلهي! سيعرضان عليها أن يوصلاها، وتملكها الغثيان. يمكنها أن تخمن صاحب هذه الفكرة. أنزل روميرو زجاج النافذة وأطل برأسه: «اصعدي، سنوصلك إلى البيت».

قالت بصلابة: «هذا ليس ضرورياً».

وتثاءبت كاسي ثم قالت بضجر: «قلت لك إنها سترفض. هيا يا حبيبي، أغلق النافذة. أنا أشعر بالبرد».

توتر فك جيك. فبعد أن أمضى معظم النهار في تسلية كاساندرا، لم يعد في مزاج يسمح له بتحمل سيطرتها. ولكن إيف لا تسهّل عليه الأمور هي أيضاً. ورغب في أن يختلق عذراً ثم ينسحب عائداً إلى لندن بسرعة، قبل أن يفعل ما يندم عليه.

بدت له إيف فاترة وملامحها شاحبة بشكل غير طبيعي تحت ضوء مصباح الشارع. ورغم أنها كانت ترتدي معطفاً من الصوف الخشن، إلا أنه لم يبدُ له كافياً ليدفئها. وأرغم نفسه على كبح انزعاجه لأنها رفضت السماح له بمساعدتها. وتجاهل احتجاج كاساندرا وفتح بابه ونزل من السيارة: «ما زال أمامك أكثر من نصف ميل للوصول إلى البيت».

رآها تتراجع إلى الخلف بشكل لا إرادي عندما اقترب منها، وهي ترفع حاجبيها: «أحقاً؟».

- الجو بارد ويبدو عليك التعب.

- شكراً.

بدا عليه فروغ الصبر: «أنت تعرفين ما أعنيه. أظن أن يومك كان شاقاً مع الطباشير».

زمّت شفتيها متسائلة عما يجعلها تكره الصعود إلى السيارة بهذا الشكل. لم تكن كاسي هي السبب فقط رغم أنها لاحظت أن المرأة تنظر إليها وقد ضاقت عيناها. كانت تدرك وحسب أنه ليس من صالحها أن تسمح لهذا الرجل بالاقتراب منها.

وأخيراً، قالت مواجهة نظراته المتحدية بعناد: «أنا بحاجة إلى المشي. تابع مسيرك، ولكن شكراً على أيّ حال».

www.elromancia.com

وبللت شفتيها الجافتين بلسانها.

تمتم: «أتمنى لو أصدّق أنك تعنين هذا».

لكن لم يكن بإمكانه أن يحملها ويلقي بها في السيارة.

وتذكر شيئاً ما فعاد يفتح السيارة وتناول من المقعد الخلفي شالاً صوفياً أسود كان قد اشتراه من أحد المصانع وسرّ بدفئه عندما تسلّق التلة إلى أطلال حصن روماني في «هاوستير»، بينما بقيت كاساندرا في السيارة. عاد إلى حيث كانت إيف تنتظر وألقى إليها بالشال، قائلاً: «هاك. أسدي خدمة لنفسك ولفيه حولك».

وعندما لم تقل شيئاً، أضاف: «سنراك في ما بعد».

أومأت. لكنها انتظرت حتى ابتعدت أضواء السيارة الخلفية، لتلتفّ بالشال. روميرو على حق فهي تشعر بالبرد. لكن البرد داخلي بقدر ما هو خارجي. كان الشال سميكاً وناعماً. لكنها ولسوء الحظ، اشتمت فيه رائحة روميرو أيضاً، وهي مزيج من محلول ما بعد الحلاقة، ورائحة الرجولة. وبالرغم من شكوكها السابقة دفنت وجهها في دفئه. وبعد أن سوّت من وضع حقيبة ظهرها، دست يديها في جيبها ثم تابعت صعود الطريق نحو أضواء البيت.

لحسن حظها أنّها وجدت جدتها وحدها في المكتبة. وكانت السيدة بلاكوود قد أخبرتها أن جدتها اتصلت بالمستشفى في نيوكاسل وألغت طلب سيارة الإسعاف. وتابعت المرأة بأسف: «قالت إن كاحلها تحسن كثيراً هذا الصباح. بعدئذ، نزلت إلى الطابق السفلي وأخرجت ألبوم الصور من الخزانة. وعندما سألتها عما تفعله، قالت إنها تحاول أن تتذكر كيف كان مظهر كاسي وهي في مثل سنك».

كبحت إيف آهة وسألتها: «هل... هل قالت لماذا؟».

- لا. أفترض أن وجود الآنسة كاسي هنا حرّك مشاعرها. ولكن عليها ألاّ تتعب نفسها في عمرها هذا.

وعندما دخلت إيف المكتبة ورأت جدتها تحدّق في الفضاء، ثارت مخاوفها مرة أخرى. السيدة العجوز تخطط لشيء ما وتمنت إيف ألاّ يكون لها علاقة به.

قالت وقد أصبحت مشاكلها تافهة وهي تواجه تهديداً أكبر: «مرحباً...».

وصمتت لحظة ثم سألتها: «سمعت أنك رفضت الذهاب لتصوير كاحلك. كيف حالك اليوم إذن؟».

طرفت جدتها بعينيها ثم حدّقت في حفيدتها وكأنها تراها للمرة الأولى: «أنا بخير... هل وصلت لتوك يا عزيزتي؟».

- منذ دقائق.

لم تذكر إيف أنها صعدت إلى غرفتها أولاً، لتضع في خزانتها الشال الذي أعارها إياه جيك روميرو. عليها أن تعيده إليه، ولكن ليس حالاً: «قالت السيدة بلاكوود إنك جلست في الطابق السفلي طوال النهار. إذا كنت مصرة على تجاهل نصيحة الطبيب، فعليك على الأقل أن ترتاحي».

- لماذا؟ لأن ذلك الشاب الوسيم ليس هنا ليساعدني؟

وأضافت بلهجة لاذعة وهي تتناول عصاها وتلوّح بها: «أنت تعلمين أنني لست عاجزة».

- ومع ذلك...

- كفى انتقاداً يا إيف... أتراني سمعت صوت سيارة قبل قليل؟

وخطر لإيف أنّ هذا يعني أن كاسي لم تعبأ بتفقد أمها. ألا تهتم بها على الإطلاق؟ والأهم من ذلك، ألا تدرك أنها تلعب بالنار؟ يبدو أنّ جدتها لا تهتم بما قالته، وأنّ الشجار الذي حدث الليلة الماضية ليس سوى قمة جبل جليدي عائم، ولعل السبب في ذلك يعود إلى تقدّمها في السن.

www.elromancia.com

قالت وهي تتكلف ابتسامة متألقة: «أظنها سيارة السيد روميرو. فقد مرت بي عندما كنت في طريقي إلى البيت».

- إذن فقد عادت كاسي؟

- أظن ذلك.

لم تشأ إيف أن تخبرها عن مقابلتها لهما. ونظرت من حولها: «هل شربت الشاي؟».

قالت جدتها بمزاج سيء وهي تدفع الصندوق الذي عند قدميها بعيداً ثم تمد قدمها المصابة: «لا أريد أن أشرب الشاي. أين هي الآن؟».

- كاسي؟

- ومن غيرها؟

تنهدت إيف: «أظنها صعدت إلى غرفتها لتخلع معطفها. ستنزل خلال دقيقة».

رجت ذلك على الأقل، ومن دون اصطحاب ضيفها الذي يشغل وجوده بالها، هذا إذا كان لديها ذرة عقل.

- وهل صعد هو إلى الطابق العلوي أيضاً؟

طرحت جدتها هذا السؤال بهدوء، رغم أن إيف تعلم أنها تعرف الجواب كما تعرفه هي أيضاً.

- من؟ السيد روميرو؟

- كفى تظاهراً بالغباء، يا إيف. أنت تعلمين بالضبط عمن أتحدث.

ونظرت إلى حفيدتها بدهاء: «ما رأيك فيه؟».

ابتلعت إيف ريقها لتفكر قليلاً: «أنا... إنه يبدو... لا بأس به».

- لا بأس به؟ أي جواب هذا؟ ألا تظنينه صغيراً بالنسبة إلى كاسي؟ إنها في السابعة والأربعين كما تعلمين.

- بل في السادسة والأربعين.

أجابت إيف من دون تفكير، فحملقت جدتها فيها: «كفى جدلاً

تافهاً، هل هي أكبر منه أم لا؟».

حبست إيف أنفاسها: «كثيرات هن اللواتي يتزوجن رجلاً أصغر منهن. جوان كولينز مثلاً».

- كاسي ليست جوان كولينز. ولا أعتقد أنني ذكرت الزواج. لماذا يتزوجها بينما بإمكانه أن يحصل على ما يريد حتى من دون شراء خاتم لها؟

شعرت إيف بمعدتها تتوتر وهي تتخيّل المشهد الذي صوّرته جدتها. وأسرعت تقول: «ما داما سعيدين معاً... أتريدينني أن أبعد عنك هذه الصناديق».

وتمنت لو أن هذا الحديث لم يبدأ.

- أنت تعلمين ما بداخل هذه الصناديق طبعاً. لقد أريتك إياها ذات يوم. كان جدك مغرماً جداً بالتقاط الصور. كان يقول إن الصور تسجل الماضي بشكل لا يقبل الجدل. فكرت في أن أري السيد روميرو بعضها.

تملك إيف الرعب: «كلا! لا يمكنك ذلك يا جدتي فستبدو نيتك سيئة وأنت تعلمين ذلك».

- لماذا؟ النيّة السيئة في عرض بعض الصور؟ ربما يسرّه أن يرى صور كاسي عندما كانت فتاة شابة.

- لا يمكنك أن تفعلي ذلك.

وانحنت تحمل صندوقين ثم وضعتهما في مكانهما المعتاد في قعر الخزانة. وانتصبت واقفة وهي تقول: «على أيّ حال، أريد أن أخبرك أمراً ما».

- عن كاسي أو السيد روميرو؟

- لا هي ولا هو.

وتمنت ألاّ تلحظ جدتها احمرار وجهها، وحملت صندوقين آخرين

www.elromancia.com

ووضعتهما مكانهما وهي تقول: «تقول السيدة بورتمان إن المدرسة ستقفل أبوابها نهائياً في عيد الفصح المقبل».

- آه... كلا، لماذا؟

بدت الصدمة على جدتها، وتمنت إيف أن يصرف هذا ذهنها عن التفكير في إحراج ابنتها، وأجابت: «هذا جزء من خطة الحكومة لجعل المدارس أكثر كفاءة. إنّ عدد طلاب مدرسة فالكوني بريدج في تناقص وسيتم نقل من تبقّى منهم إلى مدرسة إيست ردزديل التي هي أكبر وأكثر فائدة من حيث النمو الاقتصادي».

- منذ متى يرتبط التعليم بالنمو الاقتصادي؟ نحن نتعامل هنا مع أطفال وليس مع رجال آليين.

- أعرف هذا.

واقتربت من كرسي جدتها وقالت: «يبدو أنني سأحتاج إلى وظيفة أخرى».

فهتفت المرأة العجوز بمرارة: «لقد استقريت لتوّك! أنت لن تنتقلي من هنا، أليس كذلك؟».

قالت الجملة الأخيرة بقلق بالغ فأحاطت إيف كتفيها بحنان: «لا. فهذا بيتي الآن».

مدّت المرأة المسنة يدها لتمسك بيد الفتاة وهي تقول: «أنت فتاة طيبة. حفيدة تعاملني بشكل أفضل من كاسي أو مما أستحق».

قالت إيف باحتجاج: «هذا غير صحيح».

فهي لا تريد أن تتدخل في تقصير كاسي مع أمها مرة أخرى. لكن وقبل أن تجيبها الجدة رن جرس الهاتف فسارت إيف إليه بشيء من الارتياح لأنه قاطع حديثهما.

- أيمكنني أن أتحدث إلى الآنسة ويلكز، رجاءً؟

- الآنسة ويلكز؟

كان صوت المرأة المتصلة غير مألوف، وللحظة تعطّل ذهن إيف، ثم ما لبثت أن تذكرت أن ويلكز هي الشهرة التي تستعملها كاسي في مهنتها، فهتفت: «نعم. سأناديها».

وعندما اتجهت إيف إلى الباب سألتها جدتها: «من المتكلّم؟».

همست إيف بأن ثمة امرأة تريد الآنسة ويلكز، فقالت الجدة بصوت مرتفع: «كاسي؟ لِمَ تريدها؟».

همست إيف بعجز، لكن لم يكن لديها الوقت لتجيب وهي تخرج إلى الردهة. فكرت في أن تنادي كاسي من أسفل السلم، لكن البيت كبير. وكان من عادة كاسي أن تدّعي أنها لم تسمح النداء حتى لو سمعت.

لذا، ركضت نحو غرفة كاسي حيث نقرت على الباب فلم يرد أحد. فتحت الباب بشيء من القلق. لعل كاسي في الحمام فلم تسمع، لكن الغرفة والحمام كانا خاليين.

تنهدت وأغلقت باب الغرفة وهي تدرك أنها لن تجدها سوى في مكان واحد، وهو غرفة جيك روميرو.

تنفست بعمق ثم توجّهت إلى غرفة جيك. كانت تعلم أن أوامر الجدة تقضي بأن تكون الغرفتان متباعدتين نوعاً ما، لكن جهد السيدة روبرتسن ذهب هباء.

أثارت أول طرقة على الباب صوت احتجاج ثاقب. وهبط قلبها حين تخيّلت ما ستجده عندما يُفتح الباب، لكنها دهشت وقد فتح الباب على الفور ليواجهها جيك روميرو وهو في كامل ملابسه.

- ثمة اتصال هاتفي للآنسة ويلكز.

وشعرت بغبائها وهي تتلعثم، لا سيّما عندما ظهرت كاسي من خلف جيك وهي تطوق كتفيه بذراعها بتملك، وقد استبدلت كنزتها بقميص مفتوح الأزرار يكشف عن معظم صدرها.

www.elromancia.com

- اتصال هاتفي؟ لي؟ هل أنت واثقة؟

أجابت إيف وقد تمالكت نفسها نوعاً ما: «ما من آنسة ويلكز سواك هنا».

واتجهت إلى السلم وهي تضيف من فوق كتفها: «يمكنك أن تجيبي من الردهة إذا أردت أن تكون سرية لأن أمك في المكتبة».

- سرية؟ وفي الردهة؟

شخرت كاسي وهي تضطر لرفع ذراعها عن كتف جيك الذي التفتت إليه قائلة: «أيمكنك أن تصدق هذا؟ بيت بهذا الحجم من دون هاتف في الطابق الأعلى؟ يا للسخافة».

ردّ جيك بجفاء: «أنا واثق من أن أمك لا تجد في ذلك أيّ مشكلة».

أدرك أن رد فعل إيف وهي تجدهما معاً، أزعجه إلى حد كبير وتابع يقول: «اذهبي، أريد أن أغتسل على أيّ حال».

- لكننا كنا...

فقال بفتور: «كنت على وشك أن تذهبي إلى غرفتك».

ثم انتظر حتى خرجت، فأغلق الباب خلفها بعنف أكثر مما يلزم.

٥ - عليّ أن أرحل

أقفل جيك بابه احتياطاً قبل أن يدخل الحمام. لم يكن واثقاً من أن كاساندرا لن تعود إليه بعد إنهاء مخابرتها. وآخر ما يريده هو أن تخرق كاساندرا القانون الذي وضعته أمها لهما، لكنه لم يعرف السبب في ذلك بالضبط. فمنذ غادرا لندن تصدعت علاقتهما بكل تأكيد، ولم يعد لديه رغبة في الاستمرار فيها.

أخذ يفكر متأملاً، والماء يتدفق على كتفيه، في أن السبب يعود ربما إلى اكتشافه الطريقة التي تعامل بها أسرتها. فكاساندرا لا تهتم بأمها كما يجب. أما إن كانت المرأة العجوز تستحق ذلك... فهذا ما لا يعرفه.

أما إيف... حسناً، فوضعها غامض تماماً. من الواضح أنها تعمل لتعيش، كما تساعد في أعمال المزرعة قدر إمكانها. ومع ذلك، ثمة صلة غريبة بينها وبين السيدة العجوز لم يستطع أن يكتشف كنهها. ثمة عطف وتفاهم حنون بينهما، نوع العلاقة التي توقع أن تكون بين كاساندرا وأمها.

هل إيف هي من أحدث التصدع بين كاساندرا وأمها؟ لا يبدو عليها أنها منحرفة بأي شكل لكن من هو ليحكم؟ فهو يكاد لا يعرف الفتاة. لكنه يعرف، بحكم الخبرة، أن المظهر قد يكون مختلفاً جداً عن الباطن.

وينطبق هذا خاصة على رد فعله نحوها. فلو أخبرته بلسانها أنها

www.elromancia.com

تكرهه، لما أصبحت تلك الكراهية أكثر وضوحاً... فلماذا إذاً هذا الإصرار منه على أن يريها أنه ليس ذلك النذل الذي تظنه؟ لماذا، وهي التي تستفزه على الدوام، تجعل دمه يجري حاراً في عروقه، وتقلق نومه؟

يا للحماقة! وشعر بالاشمئزاز من نفسه ومما تقوده إليه أفكاره. وتأوه لشعوره بالرغبة فيها. تباً! ما الذي حدث له؟ منذ متى يشعر برغبة جامحة نحو امرأة لا تهتم به؟

كان يجفف جسده حين خيل إليه أنه يسمع طرقاً على باب غرفته، لكنه تجاهله. إذا كان الطارق كاساندرا، فهو لن يفتح الباب لها. أما إذا لم تكن هي...؟

لكنه لم يذهب إلى الباب فإيف لن تأتي إلى غرفته مرة أخرى. لقد أظهرت رأيها بما رأته بوضوح تام.

ارتدى سروالاً محكماً على الساقين، وقميصاً مفتوحاً حريرياً. كان الجو بارداً، لكن والدة كاساندرا تميل إلى زيادة تدفئة الغرف الرئيسية في المنزل. وبالتالي، تكهن بأن المكتبة ستكون دافئة أكثر من اللازم.

تردد أمام باب المكتبة، لا يدري إن كان عليه أن يقرعه ويعلن عن وجوده. لكنه لم يرَ أيّ ضوء يتسرّب من تحت الباب فافترض أنه أول الواصلين. من دون اهتمام، أدار قبضة الباب وفتحه، فأدهشه أن يرى إيف تجفل وهي التي جلست أمام المدفأة الضخمة حيث تستعر النار.

قفزت واقفة على الفور، ومدت يدها إلى أقرب مصباح تضيئه بينما أغلق هو الباب خلفه.

وأدرك جيك أنه لا يستطيع تجاهل الحرارة التي يشعر بها معها، كما أنه لا يريد ذلك.

كانت ترتدي السروال الأسود نفسه الذي لبسته الليلة السابقة، لكنها ارتدت معه كنزة بفتحة عنق مثلثة الشكل ومزينة بالدانتيل. وكان ضوء

المصباح قد أضفى على عينيها الرماديتين غشاءً من الغموض تلهف إلى اختراقه.

ومع ذلك، كان مجرد النظر إليها، وإلى ملامحها الشاحبة وشعرها الأسود كالليل، يجعل لهفة غريزية تتملكه ليعرف ما يكون عليه شعوره لو أخذها بين ذراعيه...

هذا يكفي...

كاد يلفظ هاتين الكلمتين بصوت عالٍ عندما حدّقت فيه من فوق كتفها وهي تجلس على كرسي بذراعين. يبدو أنها كانت تشعر بالبرد رغم جلوسها بجانب المدفأة، وتمنى ألاّ يشعر بالندم لعدم ارتدائه كنزة. وفجأة، إذا بها تمدّ يدها إليه بالشال.. شاله!

قالت وهي تتقدم نحوه لتضع الشال في يده: «طرقت بابك لأعيده إليك».

وألقت بضفيرتها على كتفها مضيفة: «لكنك لم تسمعني».

ومرة أخرى كبح شتيمة أوشكت أن تنطلق من بين شفتيه. ليته كان يعلم... يعلم أنها هي من طرق بابه...

- ربما كنت في الحمام.

لاحظ التواء شفتيها إزاء كلماته فهي لم تصدقه. لعلها ظنته مع كاساندرا. أراد أن يخبرها بأنها مخطئة وأنه امتنع عن فتح الباب لأنه لم يشأ أن يتجادل مجدداً مع كاساندرا، لكنه لم يفعل، بل سار نحوها ليلقي بالشال على المكتب، ثم يقول: «كيف حال السيدة روبرتسن هذا المساء؟».

وكأن الحديث عن شخص آخر يمكنه أن يخفف استياءه. تباً! لا يحقّ لها أن تدينه لو أراد هو وكاساندرا حتى أن يتغازلا في الفناء الأمامي للبيت، فهذا أمر لا علاقة لها به. ونظر من حوله: «ظننتها هنا».

www.elromancia.com

لم تعرف إيف ما تفعله بيديها الآن والشال ليس بينهما. وأخيراً، دستهما في جيبيها وهي تقول: «لا. وأتوقع أن تنضم إلينا في ما بعد».

- هل تريدين أن. . .
- تحملها على السلم؟ لا. لا أظن أنّ ذلك ضروري.
- أتتخذين أنت كل القرارات بدلاً منها؟

كانت عيناه السوداوان مصممتين على سماع جوابها، فتململت إيف بضيق من تحديقه هذا وقالت بتوتر «طبعاً لا».

واتجهت إلى الأمام: «إذا سمحت، سأذهب وأرى إذا كانت . . .».

- وإذا لم أفعل؟

حبست أنفاسها: «إذا لم تفعل ماذا؟».

قال بنعومة: «إذا لم أسمح لك؟».

وأظلمت عيناه: «هيا، يا إيف، هل يضرك أن تبقي معي دقائق عدة؟ أتخافين أن أفعل بك شيئاً؟».

- لا يمكنك ذلك.

وتمنت من كل قلبها ألاّ يحاول اختبارها فيما توترت شفتاه وتمتم بجفاء: «لا تكوني واثقة إلى هذا الحد».

لكنها رأت شبه ابتسامة تسلية عند زاوية فمه.

- من المستحسن أن تسايريني.
- لماذا تريدني أن أفعل ذلك؟

فكر لحظة: «ربما أريد أن أعرف المزيد عنك. هل ثمة ضرر في ذلك؟».

ارتجفت: «ستصل كاسي حالاً، وستخبرك بكل ما تريد أن تعرفه».

- أشك في ذلك. لما لا تجلسين على هذا الكرسي وتخبريني بنفسك؟

وأشار إلى كرسي خلفها فقالت: «ربما لا أريد ذلك».

- هذا ما أراه. لِمَ لا؟

زفرت متوترة لكنها لم تستطع أن تبعده عن طريقها. لقد وقعت في الفخ، وبدا عليها الإحباط وهي تتراجع إلى الكرسي الذي أشار إليه. ولم يحاول أن يجلس قبالتها بل وقف فوق رأسها، فأرغمت نفسها على أن ترفع إليه عينيها سائلة: «حسناً؟».

كان الفضول يتملكه بالرغم من انزعاجها. كانت منطوية، ومتأهبة للدفاع عن نفسها، واهتمامه السابق ازداد ليصبح انجذاباً لا علاقة له بالرغبة. لكنه اعترف بصدق بأنها ما زالت تثيره بفتنتها الهادئة. ثم. . . نعم، لماذا لا؟ كراهيتها السماح له بالاقتراب منها.

أما لماذا يريد هو ذلك فهذا ما لا يريد البحث فيه حالياً. . . وعندما أدرك أنه لن يستطيع التحكّم بالحديث من موضعه، سار نحو كرسي قبالتها.

وعندما لم تحاول أن تتحدث إليه، قال: «حدثيني عن نفسك. هل عشت دوماً في شمال إنكلترا؟».

أجابته باختصار: «لا».

- هل يعيش والداك في مكان آخر من البلاد؟
- ليس لدي والدان. هل هذا كل شيء؟
- كلا، ليس كل شيء.

وتملكه الغيظ رغم تصميمه على ألاّ يدعها تغضبه، فهذه طريقتها في تجنب المزيد من الكلام، لكنه لن يدعها تهرب من ذلك: «لكل إنسان والدان يا إيف. أم أنك ما زلت تعتقدين أن الأطفال يأتون في الملفوفة؟».

احمرّ وجهها، فاعتصر قلبه لمظهرها العاجز المفاجىء. وقالت بجفاء: «أنا أعلم من أين يأتي الأطفال يا سيد روميرو، رغم أن خبرتي

www.romancia.com

ليست بقدر خبرتك».

حبس أنفاسه: «ماذا تعنين بقولك هذا؟».

بدا عليها بعض التوتر، واشتبه في أنها قالت ذلك من دون اعتبار للنتائج. لكنها قالت: «أنا... ليس لدي أولاد، يا سيد روميرو. ربما لديك أنت».

كان واثقاً من أن هذا ليس ما عنته حين أدلت بتلك الملاحظة، لكنه لم يعارضها بل قال مستمتعاً باضطرابها: «لا. ليس لدي أولاد. على حد علمي، على أيّ حال».

توهج وجهها لكنها لم تتراجع: «ليس الكل يهتم».

وحوّلت عينيها عن عينيه وهي تتابع: «على أيّ حال، ولمعلوماتك، أنا لم أعرف أبويّ قط. أعني والديّ الحقيقيين».

فقطب حاجبيه: «أتعنين أنك متبناة؟».

تنهدت: «وما فائدة هذه المعلومات لك؟».

- صدقيني، هذا يهمني.

سكتت لحظة طويلة ثم رفعت رأسها وقابلت نظراته: «الفترة فقط. هربت وأنا في الثانية عشرة من عمري».

في الثانية عشرة؟ لم يستطع أن يفهم. فتاة في الثانية عشرة؟ بضفيرتين؟ متمردة قبل المراهقة؟.

قالت وهي تنظر إلى يديها: «لكنني لم أبق هاربة طبعاً».

وتساءل عما إذا كانت واعية لما تقول حين أضافت: «لقد وجدوني وأعادوني مرتين لكنني عدت فهربت، حتى قررت السلطة أنه من الأسهل أن تسلمني إلى مؤسسة الشؤون الإجتماعية».

- لكنك كنت صغيرة للغاية.

- كنت كبيرة بما يكفي. حدث هذا كله منذ وقت طويل. وقد نسيت كل شيء عنه.

وزمت شفتيها لأنها لم تنس. واستطاع أن يلحظ ذلك. وتلهّف لأن يسألها عن السبب الذي جعلها تعيش في هذا المكان مع سيدة عجوز. ثم تذكر ما أخبرته به كاساندرا: «تربطك صلة قرابة بآل روبرتسن، أليس كذلك؟».

فاجأه الشحوب الذي كسا وجهها، وسألته بتوتر: «من أخبرك بذلك؟».

هز كتفيه: «كاساندرا، أليس هذا صحيحاً؟».

لم تستطع أن تنطق بأيّ جواب إذ فتح الباب بشكل مفاجيء. وعلى الفور سطع النور ووقفت كاساندرا عند عتبة الباب وهي تنظر إليهما وعلى وجهها غضب سافر.

كانت تلبس ثوباً شفافاً يلتصق بجسمها الحسن التكوين، ثوب لا يناسب عشاءً بسيطاً في المنزل. ورأى جيك باشمئزاز، أنها قررت أن تستعمل أي وسيلة لتجعله يغير رأيه. ولم يدهشه أن يكتشف أن جهودها في الإغراء لم تحرك مشاعره.

سألته كاساندرا وهي تنقل نظراتها بينهما: «ما الذي يجري هنا؟».

شعرت إيف وكأنما قبض عليهما بالجرم المشهود، فيا للسخرية! كانا يتحدثان وحسب، رغم أنها شعرت بأنها مذنبة.

وقف جيك من دون اهتمام: «حسناً، دعيني أتذكر. أعادت إيف الشال الذي أعرتها إياه عصر هذا اليوم، وسألتها عن حال السيدة روبرتسن هذا المساء. وقد عرضت أن أحمل أمك على السلم مرة أخرى، لكن إيف رأت أن هذا غير ضروري، ثم تحدثنا عن...».

فقالت كاساندرا بحدة: «لا أريد أن أسمع حديثكما كله».

فرفع جيك حاجبيه متسائلاً بسخرية: «حقاً؟ لكنني ظننت أن هذا ما تريدينه. أنت من سأل عما يجري هنا».

حملقت كاساندرا فيه: «أنت تعرف بالضبط ما كنت أعنيه».

www.elromancia.com

ردت عليه بحدة من دون أن تحاول أن تتكلم بصراحة، لكن عندما شعرت بأن هناك من يسمع، أخفضت صوتها وتابعت: «منذ متى وأنت جالس مع إيف؟».

هز كتفيه وأجاب متسائلاً: «وهل هذا مهم؟».

- لم يخطر لك أن تخبرني أنك ستنزل إلى الطابق السفلي.

فقال جيك بصوت واضح التوتر: «آسف. لم أكن أدري أن عليّ أن أعلمك بتحركاتي. أظنك كنت تبحثين عني، وهذا هو سبب تصرفك بهذا الشكل، أليس كذلك؟».

صرفت كاساندرا بأسنانها ولم تستطع أن تقول شيئاً دفاعاً عن نفسها، فقالت: «ظننتك ... ظننتك تريد أن تعلم من اتصل بي، حسب عادتك».

واستدارت لتغلق الباب خلفها، كاشفة عن أن الثوب لا ظهر له، ثم عادت لتواجهه. كان بإمكانه أن يجادلها بقوله إن المرة الوحيدة التي سألها فيها عن المتصل هي عندما ردت على الهاتف في فندقه في لندن. لكن لن يدعها تسرّ وهي ترى أنها وضعته في موضع الدفاع عن النفس.

إلاّ أنه رأى مدى تأثر إيف بكلامها، فلم يدهشه أن تقف قائلة إن عليها أن تذهب إلى المطبخ لترى إن كانت السيدة بلاكوود بحاجة إلى مساعدة.

عندما أصبحا وحدهما، أسرعت كاساندرا إليه هاتفة: «الحمد لله على ذهابها. لن تتخيّل أبداً ما حدث».

ودسّت يدها في فتحة قميصه فأمسك بيدها وأخرجها قائلاً: «أخبريني إذن. ولكن هل نتناول شراباً قبل ذلك؟».

فتنهدت: «أنت لا تفهمني. هذا هام للغاية».

فقال وهو يجلس على حافة المكتب: «لا بأس. تكلمي».

بللت شفتيها وقالت: «قدموا لي دوراً في «إيفرمور»، أليس هذا رائعاً؟».

وكانت عيناها تشعان إثارة.

- وما هو «إيفرمور» هذا؟

- جيك. لا بد أنك سمعت عن «إيفرمور»! إنه أحد أكثر إعلانات الصابون نجاحاً على التلفزيون حالياً.

لم يشأ جيك أن يقول إنه نادراً ما يجد وقتاً لمتابعة الأخبار على التلفزيون، فكيف بمتابعة إعلان عن صابون مهما كان ناجحاً؟ لكنه لم يشأ أن يطفىء حماستها، فقال: «هذا يتطلب عودتك إلى لندن. لا بد أنك متحمسة».

- جداً وكذلك آمي.

وكان جيك يعرف آمي لاسيتر وكيلة أعمالها.

- هي من اتصلت طبعاً. أجريت الاختبار منذ أسابيع، وقطعت الأمل من أي جواب إيجابي. لكن يبدو أن... الممثلة التي اختاروها في البداية انسحبت... ولهذا...

- اختاروك أنت.

- نعم.

- وهل هو دور كبير؟

- حسناً، يبدأون بعرض الإعلان ثلاث مرات، وإذا لاقى الممثل أو الممثلة نجاحاً لدى المشاهدين يمددون العقد.

- حسناً.... لا بدّ أنك تريدين العودة إلى لندن في أسرع وقت ممكن.

وهذا يناسبه ولا يناسبه، لكن الخيار لا يعود له.

- طلبت مني آمي أن أعود غداً، فثمة ترتيبات كثيرة علينا القيام بها. توقيع عقود، ومشاورات، ونصوص واجتماعات... لا أصدّق هذا.

- ستكونين مشغولة جداً.

شعوره بالارتياح لتخلّصه منها لم يكتمل فهذا يعني أنه قد لا يرى

www.elromancia.com

إيف مرة أخرى. وفجأة، انفتح الباب بعنف ودخلت منه والدة كاساندرا متكئة على عصاها، وهي تقول: «آسفة لهذا العنف، فقد فقدت توازني».

ونظرت إلى جيك عابسة: «ما الذي عنيته حين قلت إنها ستكون مشغولة جداً؟».

ابتسم وهو يرى التعبير الذي ارتسم على ملامح كاساندرا. إنها الآن في الموقف نفسه الذي وضعت إيف فيه من قبل. وأجاب: «أخذت ابنتك دوراً في إعلان اسمه إيفرمور. هيا، دعيني أساعدك على الجلوس في الكرسي».

أمسكت بذراعه بارتياح واضح ثم سارا في الغرفة ببطء. ولكن عندما جلست على الكرسي، نظرت إلى ابنتها بعينين زرقاوين تنضحان دهاء، وقالت: «إيفرمور؟ آه... حسناً، حسناً... من كان يظن ذلك؟».

فقالت كاساندرا: «ليس أنت، كما يبدو».

بدت عليها الحيرة لحظة ثم قررت أن تجلس على كرسي أمام أمها: «ألن تهنئيني؟ فهذا هو الدور الذي كنت أنتظره».

هزّت أمها كتفيها غير راضية: «أظن أننا سنراك أقل مما كنا نراك في السابق».

فسألت كاساندرا بمرارة: «وهل يهمك هذا؟».

فردت الأم بحدة وجفاء: «ربما هناك من يهتم. ولكن إذا كان هذا ما تريدينه...».

- وهو كذلك.

- حسناً، أتمنى لك حظاً سعيداً. يعلم الله أنك بقيت من دون عمل مدة طويلة.

فقالت كاساندرا بغضب: «كنت أستريح. صدقيني يا أمي أنني

ممثلة، ولست معلمة في مدرسة بحق الله».

كبت جيك آهة. رأى أن من عدم الحكمة منها أن تقحم إيف في هذا الجدل، ولم يدهش حين قالت السيدة روبرتسن: «إيف لديها عقل يا كاسي، وهذا ما لا يمكن أن يتهمك به أحد».

- كيف تجرؤين؟

- ماذا؟ أتظنين أن حفظ بضع كلمات ترددينها كالببغاء أمام الكاميرا يتطلب ذكاء؟

- أنت لا تعلمين شيئاً عن ذلك.

- أظنني لا أريد أن أعلم.

رأى جيك أن عليه أن يضع حداً لهذا الجدل قبل أن تقول إحداهما ما تندم عليه، فقال: «هل يمكنني أن أحضر لكما شراباً؟ سيدة روبرتسن؟ ربما كأس من الصودا يا كاساندرا؟».

سبّبت كلماته صمتاً مثقلاً بالعداء. لكن وبعد لحظات، تذكرت والدة كاساندرا تهذيبها، فأجابت: «نعم. لا بأس بكأس عصير. شكراً يا سيد روميرو».

- ما من مشكلة. ماذا عنك يا كاساندرا؟

فقالت من دون أن تنظر إلى ناحيته: «صودا مع ثلج».

قدم إلى المرأتين شرابهما، ثم سكب لنفسه كأس عصير، مستمتعاً بطعمه اللذيذ ومحاولاً إبعاد ذكرى الكراهية التي شهدها لتوّه. وكبح آهة أخرى عندما تكلمت السيدة روبرتسن مرة أخرى: «أظنك ستغادرين صباحاً يا كاسي؟».

ورغم الهدوء في صوتها، رأى أنها تبذل جهدها لكي تكون مهذبة.

لم تجب كاساندرا على الفور. وتمنى ألاّ تفتعل جدلاً آخر، لكنها قالت أخيراً بشكل مهذب: «نعم. عليّ أن أعود إلى لندن غداً».

فقالت الأم باهتمام غير متوقع: «ستكونين مشغولة جداً في الأيام

www.elromancia.com

القليلة المقبلة، في التمارين وما شابه؟».

راحت كاساندرا تنظر إلى أمها بحذر، ولم يلمها جيك تماماً. وقالت: «نعم. هذا ما أتوقعه».

أخذت الأم تفكر للحظة ثم قالت: «حسناً، كما قلت لي منذ دقائق، أنا لا أفهم كثيراً في هذه الأمور يا كاسي، لكنني ظننت أنك تشغلين وقتك في استضافة وتكريم السيد روميرو».

فتحت كاساندرا فاها، لكنها عادت فتحكمت في نفسها بسرعة وراحت نظراتها تنتقل بين أمها وجيك.

وأخيراً قالت بتوتر: «لماذا يهمك هذا الأمر؟».

هزت الأم كتفيها: «أنا لا أريد أن يشعر السيد روميرو بأنه غير مرغوب فيه هنا إذا شاء أن يبقى».

فشهقت كاساندرا: «لا يمكن أن تكوني جادة»!.

- لِمَ لا ؟ فهمت أنه مستمتع كثيراً في هذه المنطقة، وإذا لم يكن لديه عمل هام في لندن، فما من مانع في أن يبقى هنا وينهي إجازته.

هبّت كاساندرا واقفة وهي تقول: «كلا. لا أريد... جيك سيعود معي إلى لندن».

رفعت أمها حاجبيها تستفزه: «أليس السيد روميرو هو من يقرر ما يريد؟».

- لا يمكنه ذلك... فقد جئنا معاً في سيارته.

- يمكنه أن يأخذك إلى مطار نيوكاسل. ثمة رحلات دائمة إلى لندن، وهذه وسيلة أسرع للسفر.

- أيتها الساحرة العجوز. تظنين أنك بطلبك من جيك البقاء هنا، يمكنك أن تدمري السعادة التي تملكتني لاختياري لهذا الدور.

وارتجفت غضباً، فسألتها أمها ببرودة: «وسعادتك هي الأهم دوماً، أليس كذلك؟ لا يهم من تؤلمين... من يتألم بسبب... بسبب

أنانيتك، طالما أنك سعيدة. لم يخطر ببالك أن جيك قد يفضل البقاء هنا. ممّ تخافين يا كاسي؟ من أن تسرقه إيف من تحت أنفك؟».

لم يعرف جيك ما كانت كاساندرا ستفعله لو لم يقف بينهما، فقد بدت مجنونة بما يكفي لكي تقتلع عينيّ المرأة العجوز.

وقال بفتور: «اسمعا. في الواقع، لا يمكنني أن أبقى هنا رغم تقديري وامتناني لدعوتك لي. لكني أنا أيضاً مضطر للعودة إلى لندن».

وابتسم آسفاً ثم أضاف: «آسف».

www.elromancia.com

٦ - تجربة مهينة

سرعان ما أصبح جيك غير قادر على الذهاب إلى أي مكان. قابلته إيف على فسحة السلم أثناء نزولها إلى الطابق السفلي لتناول إفطارها. نظرة واحدة إلى وجهه الرمادي وعينيه الحمراوين كانت كافية لتنصحه بأن يعود إلى الفراش.

- أظنك مصاب بالأنفلونزا. بماذا تشعر؟ تبدو فظيعاً.

لم تكن تشعر بالارتياح للعبها دور الطبيب.

- آه... شكراً.

وبالرغم من نبرة الهزل التي اعتمدها، بدا صوته محتقناً مبحوحاً. وأضاف: «سأصبح على ما يرام. على كاساندرا أن تعود إلى لندن اليوم».

كانت إيف تعلم هذا، رغم عدم ذكره أثناء العشاء، فقد أخبرتها جدتها عندما ساعدتها على الخلود إلى النوم. وسألته: «أتظن أن صحتك تسمح لك بقيادة السيارة مسافة ثلاثمئة ميل؟».

وجدت نفسها تقول ذلك رغم أن لا شأن لها به. في الواقع، ستشعر بالسعادة عندما يرحل الاثنان. لكنه كان يرتجف بشدة بالرغم من الكنزة السميكة التي يرتديها. وتابعت تقول: «بإمكاني أن آخذ كاسي إلى المطار حيث تتمكن من أن ترحل بسهولة إلى لندن. والرحلة تستغرق ساعة أو أكثر بقليل».

عبس جيك وهو يتذكر تصرف كاساندرا مع أمها حين اقترحت عليها

الأمر نفسه الليلة الماضية، وتملكه الشك في أن توافق. لكنه يشعر فعلاً بإنهاك شديد وهو لا يرغب في سوى أن يعود إلى سريره.

قال وهو يتساءل كيف ينضح جسده بكل هذ العرق بينما يشعر بالبرد بهذا الشكل: «دعينا نسألها، أليس كذلك؟».

لكنه لن يرحل، فيكفيه ما هو عليه من انزعاج الآن.

- لن نسألها. اذهب إلى فراشك وأنا سأتحدث إليها بنفسي. أنا واثقة من أنها ستتفهم الأمر.

- نعم. هذا صحيح.

وتخلل شعره بأصابعه الرطبة: «أنا لن أخيفك».

زمّت إيف شفتيها لحظة، ثم هزت رأسها: «عد إلى فراشك، يا سيد روميرو. لا أظنك في حالة تمكنّك من الجدل».

تركته ليفعل ما طلبته منه، ثم أسرعت تهبط السلم إلى المطبخ حيث قالت للسيدة بلاكوود التي تملكتها الدهشة: «السيد روميرو لن يرحل اليوم. يبدو أنه مصاب بالأنفلونزا. هل لدينا زجاجات للماء الساخن؟ فهو لا يتوقف عن الارتجاف».

- أظن أنك ستجدين زجاجتين في الخزانة. هل ستبقى الآنسة كاسي أيضاً؟

طرحت مديرة المنزل سؤالها الأخير وهي تراقب طعام الفطور الذي تحضّره، فأجابت إيف: «لا أظن ذلك. أخبرتك بما قالته السيدة روبرتسن عن كاسي وعن الدور الذي حصلت عليه، أليس كذلك؟ لا أظنها ستغامر بخسارته».

- ولكن إذا كان السيد روميرو مريضاً...

- حسناً، سنرى.

وتساءلت عما إذا كانت ساخرة أكثر مما ينبغي. على أيّ حال، يبدو واضحاً من تصرفات كاسي أنها تهتم به، ولكن أدواراً كهذه نادرة...

www.elromancia.com

ما يعني احتمال ترك جيك تحت رعاية غرباء حقيقيين.

عليها أن تقنع كاسي بأن العودة إلى لندن جواً هو الحلّ الأفضل، ولن تكون هذه مهمة سهلة وهي تعلم ذلك. قد ترفض كاسي الذهاب وهذا أفضل الحلول من وجهة نظر إيف.

تركت مديرة المنزل لتملأ الزجاجتين بالماء الساخن وتحملهما إلى غرفة جيك. بعدئذ، صعدت مرة أخرى إلى غرفة كاسي. لم تنزل كاسي إلى غرفة الطعام، وإذا لم تقصد غرفة جيك مبكرة، الأمر الذي لم تشأ إيف أن تفكر فيه، فلا بد أنها في غرفتها تحزم أمتعتها.

عندما طرقت الباب، لم تحصل على الجواب الذي توقعته بل سمعت كاسي تقول: «أدخل يا حبيبي. كنت أعرف أنك متلهف للعودة إلى المدينة».

بدا واضحاً أن كاسي ظنتها جيك، فشعرت أن فتح الباب سيحرجها للغاية. انتظرت إيف في الخارج، راجية أن تدرك كاسي خطأها. لكن عندما فتح الباب رأت كاسي واقفة لا ترتدي سوى العباءة الحريرية فوق جسمها.

جاء رد فعلها عاصفاً كما هو متوقع: «ما الذي تفعلينه هنا؟ إذا جئت لتقنعيني بأن أعتذر لتلك الكلبة العجوز، فانسي الأمر! هذه آخر مرة تراني فيها. لن أحضر إلى هنا مرة أخرى».

لقد سمعت منها إيف مثل هذا الكلام من قبل، فقالت لها بجفاء: «إلا إذا أفلست. على أيّ حال، أنا لم أحضر لأحدثك عن أمك. السيد روميرو مريض ولن يتمكن من أخذك بالسيارة إلى لندن اليوم».

نظرت إليها كاسي بذهول، ثم قالت غير مصدقة: «جيك؟ ماذا حدث له؟».

- مصاب بالأنفلونزا.

ورأت إيف كيف نظرت كاسي إليها بعينين ضيقتين فعادت تقول:

«الديه... يبدو... مريضاً».

- هل أنت واثقة من أن هذه ليست لعبة من أمي لكي تبقيه هنا؟

- ولماذا تفعل أمك هذا؟

- ألم تخبرك بأنها اقترحت عليه أن يبقى هنا أياماً عدة؟

قطبت إيف جبينها: «كلا... لم تخبرني».

فقالت كاسي بشراسة: «حسناً، لقد فعلت. أنا لا أنزهها عن القيام بعمل ما، مثل أن تضع شيئاً في شرابه أو ما شابه».

فتنهدت إيف: «لا يمكنك أن تضعي في شراب شخص ما جراثيم الإنفلونزا».

- على أيّ حال، هل ذهبت إلى غرفته مرة أخرى؟.

فقالت إيف ساخطة: «لا. لم أفعل هذا. لقد قابلته على فسحة السلم أثناء نزولي لتناول الفطور. كانت عيناه حمراوين، وبدا عاجزاً عن الكلام. اذهبي لرؤيته إذا كنت لا تصدقينني».

- لا يمكنني أن أفعل هذا.

وتراجعت إلى الخلف وكأنها خشيت أن تمسك بها إيف وتجرها إلى الممشى، ثم هزت رأسها: «لا أجرؤ على المغامرة. أعني، لا يمكنني أن أتعرض للعدوى الآن، أليس كذلك؟ ماذا سيحدث للدور الذي حصلت عليه؟ إذا أصبت بعدوى الإنفلونزا، فالله يعلم ماذا سيفعلون. قد يعطون الدور لامرأة أخرى».

فقالت إيف بفتور: «أشك في ذلك. كما أن الناس لا يستطيعون منع أنفسهم من الإصابة بالعدوى.

- حسناً، لا أريد أن أخاطر. أنا آسفة، آسفة طبعاً. ولكن إذا كان جيك مريضاً، فعليّ إذن أن أجد طريقة أخرى للعودة إلى لندن.

فقالت إيف بذعر: «من دون أن تريه؟».

هزت كاسي كتفيها وقالت من دون اهتمام: «سيعذرني نظراً

www.elromancia.com

لظروفي. سأتصل به على هاتفه الخلوي عندما أعود إلى المدينة».

وفجأة تحوّل مزاجها إلى المرح: «سوف تقلينني إلى المطار أليس كذلك يا حبيبتي؟ قالت ماما إن ثمة رحلات منتظمة إلى لندن من مطار نيوكاسل».

قالت لها إيف بخشونة: «لا... تقولي لي يا حبيبتي».

لكنها لم تستطع أن تجادلها فقد سبق وأخبرت روميرو أنها ستقلّها إلى المطار إذا أرادت الذهاب. وتابعت تقول: «من الأفضل أن تتصلي بالمطار لنعرف موعد الرحلة التالية».

- آه، يا إلهي! كم تظنينها تكلف؟

قالت متوترة لا تريد أن تتابع هذا الحديث: «أظنها تكلف حوالى مئة».

شهقت كاساندرا: «مئة جنيه؟ يا إلهي. ليس لدي مئة جنيه».

فقالت إيف وهي تتركها: «هذه ليست مشكلتي».

لكن كاسي لم تدعها تذهب وقالت متملقة وهي تلحق بها إلى فسحة السلم: «ألا يمكنك أن تقرضيني هذا المبلغ يا حلوتي؟ سأعيده لك حالما أتقاضى أجري. تعلمين أنني لا أكذب في هذا».

فقالت إيف ساخرة: «أحقاً أعلم؟ كم من المرات سمعتك تقولين هذا لإيلي».

فقالت كاسي بغيظ: «دعي إيلي جانباً. هذا بيني وبينك يا إيف. هيا. ألست مدينة لي؟».

ذُهلت إيف: «كيف تجرؤين؟».

وكادت تختنق، لكن كاسي لم تُظهر سوى الملل وهي تقول: «ألم تنسي بعد؟ ما كنت لتحصلي على ذلك لولاي».

قالت إيف بمرارة: «أنا هنا على الرغم منك».

لكنها أدركت أنها تضيّع وقتها. لا فائدة من أن تنتظر تفهّم كاسي

فهي لم تهتم يوماً بأحد سوى بنفسها، ولن تتغير الآن. وأخيراً قالت: «لا بأس. سأقرضك ثمن تذكرة السفر، وسآخذك إلى مطار نيوكاسل، شرط ألاّ تشتمي إيلي مرة أخرى».

- يا لك من رقيقة!

وكادت تقفل الباب لولا أن إيف وضعت يدها تمنعها: «عليك أن تأخذي طائرة بعد الظهر. وعدت السيدة تريفيت بأن أساعده هذا الصباح، لكنني سأكون حرة عند العصر».

- في وقت الغداء إذن. لا تتأخري.

في الأسبوع التالي سيقام معرض الخريف في قاعة الكنيسة، وقد وعدت إيف هاري بأن تساعده في تنظيم المعروضات. كان المعرض لجمع الأموال لمساعدة المرضى وهاري هو الكاهن في الكنيسة حيث يقام.

كانا، هي وهاري، قد أصبحا صديقين حميمين مؤخراً... ومنذ تعيّن في منصبه هذا، وهي تعلم أنه يرجو أن تتحوّل صداقتهما إلى علاقة أكثر دفئاً.

لكن إيف لم تكن مقتنعة بأنها تريد هذا النوع من العلاقات مع أي شخص على الإطلاق. في الواقع، كانت ستفضل البقاء في البيت هذا المساء، فقد يحتاجون إليها.

لكن هذا لن يحدث، كما خطر لها وهي تسير إلى بيت راعي الأبرشية، فجيك روميرو لم يترك سريره. ومنذ أوصلت كاسي إلى المطار أمس، كانت مساعدتها له تافهة، إذ أحضرت له السيدة بلاكوود أغطية وأدوية والكثير من السوائل.

قالت مساء أمس وهي تضع على المائدة طبقاً من اللحم: «كان الرجل مرهقاً، والنوم أحسن علاج. سيشفى بعد يومين».

لم تكن إيف تشك في ذلك، فروميرو رجل قوي للغاية، ولن يعجبه

www.elromancia.com

أن يبقى مستلقياً بسبب فيروس بسيط، كما أنه أبلغ جدتها بأنه سيعود إلى لندن في آخر الأسبوع.

كانت جدتها قد أمضت معظم يوم أمس في الفراش هي أيضاً. وبالرغم من الطريقة الساخرة التي تحدثت بها إلى ابنتها إلاّ أن وجودها معها أتعبها. وكانت قد تناولت عشاءها مع حفيدتها هذا المساء، لكن إيف اشتبهت في أنها مسرورة لخروجها، إذ منحها هذا عذراً لتنام باكراً مرة أخرى.

عندما وصلت إلى بيت الكاهن فتح لها هاري موراي الباب بنفسه. كان طويلاً نحيلاً يسرّح شعره إلى الخلف، وكانت ملامحه رقيقة تدعو إلى الثقة. ورغم صغر سنه الذي لا يتجاوز الثانية والثلاثين، تمتع بشعبية واسعة في القرية. وقد ازداد عدد المصلين في الكنيسة منذ توليه أمرها.

تنحى جانباً لتدخل وهو يرحب بها: «مرحباً. وجهك متورد. هل الجو بارد في الخارج؟».

فأجابت ضاحكة: «لا أدري إذا كانت هذه مجاملة منك أم لا. ولكن، نعم. حسب قول الأرصاد الجوية قد يتساقط الثلج».

بدا القلق على هاري: «أرجو ألاّ يحصل ذلك، فهذا يحدّ من عدد زوار المعرض. في الجو العاصف يميل الناس إلى البقاء في بيوتهم».

علق معطفها وتقدّمها إلى مكتبه. فيما قالت ببشاشة: «حسناً، الأرصاد الجوية تخطىء أحياناً».

ونظرت إلى القاعة الكبيرة غير مصدّقة: «يا إلهي... لقد جمعت الكثير من الأشياء».

فبدا عليه السرور: «أتظنين هذا؟ لهذا السبب أشكر لك حضورك لمساعدتي».

- أنا واثقة من أنك تعلم أن الكثيرين مستعدون لمساعدتك،

خصوصاً السيدات. أنت القلب النابض في القرية، كما تعلم.

احمر وجهه: «أنت تحرجينني».

لكنها لاحظت أنه لم ينكر ذلك وتابع يقول: «هل نطلب من السيدة واطسن أن تحضر لنا بعض الشراب أولاً؟».

هزّت رأسها: «كلا، فقد تناولت العشاء لتوّي. لنعمل أولاً، ثم نفكر في الشراب».

وخلال الساعة التالية عملت على فرز الملابس، والكتب والمجلات التي تبرع بها أبناء الرعية. كانت إيف تستمتع بتصفح الكتب لكنها حاولت أن تمنع نفسها من الاستسلام للهفة تصفحها.

نهض هاري أخيراً وهو يمسح الغبار عن يديه بمئزره: «أظن أن هذا يكفي لهذه الليلة. أنا واثق من أن بإمكاني إنهاء ما تبقى بمفردي».

ونظر إلى الصناديق الكثيرة التي ملأها. وكانت هي توضّب علب الفاكهة والخضار في صندوق من الكرتون، فسألته: «هل أنت واثق من ذلك؟».

فأجاب وهو يمدّ يده ليساعدها على النهوض: «نعم، لا أريد أن أمضي المساء بطوله في العمل».

- لا بأس.

ونظرت إلى الغبار الذي يكسو يديها: «لكنني أودّ أن أغسل يدي أولاً».

فتقدّمها قائلاً: «أنت تعرفين مكان الحمام طبعاً. ماذا تريدين أن أطلب من السيدة واطسن؟ قهوة أم شاي؟».

- الخيار لك.

فقال معتذراً: «فليكن الشاي إذن. آسف لأنني لست من عشّاق القهوة».

خرجت كلمة عشّاق غريبة من بين شفتيه بالرغم من نيّته البريئة،

www.elromancia.com

وتملكها الضيق وهي تراها تذكرها بجيك روميرو. هذا ما قالته جدتها عنه... عشيق كاسي. وارتجفت إيف وهي تركض نحو الحمام في الطابق السفلي.

غسلت يديها جيداً، وسرّحت شعرها الأسود. كانت بحاجة إلى بعض الوقت لتتمالك نفسها وتطرد جيك روميرو من ذهنها. لكن هذا لم يكن سهلاً.

أزعجها ذلك، لكنها اعترفت بأن تأثيره فيها كبير لأنها لم تعرف رجلاً مثله قط. وحدثت نفسها بأنها ليست بشراً إذا لم تجده جذاباً. ومع ذلك، لم يسرها أن يكون له مثل هذا التأثير في أفكارها. لكنها ليست بحاجة إلى هذا النوع من التعقيد في حياتها، وتمنت لو أنه عاد إلى لندن مع كاسي لتنسى كل شيء عنه.

زمت شفتيها ونظرت إلى ملامحها المتوترة وعينيها الفارغتي الصبر. ما الذي تفعله وهي تضيّع وقتها بالاهتمام بجيك؟ على أيّ حال، كانت علاقته بكاسي تشكل حاجزاً بينهما، كما أنّ ما من رجل سينظر إلى لونها الأسمر وشعرها الأسود بينما لديه بشرة كاسي الناصعة وشعرها الأشقر؟

وضعت المنشفة مكانها واستدارت نحو الباب. لا بد أن هاري يتساءل عما أخرّها. ويمكنها أن تتصور رد فعله إذا أخبرته بأنها كانت تتساءل عما سيكون عليه الحال لو أقامت علاقة مع جيك روميرو. يا إلهي! سيظنها مجنونة. ومن يلومه؟ فهي نفسها ترى أنها مجنونة قليلاً.

كانت السيدة واطسن مدبرة منزله قد أحضرت صينية شاي مع البسكويت، وعندما عادت إيف إلى المكتب، وجدت هاري بذرع الغرفة بقلق.

وقف حين رآها، وقد بدا في عينيه الاهتمام: «هل أنت بخير؟».

فقالت وهي تتمالك نفسها: «طبعاً، أخبرتك أنني سأغسل يديّ».

فهتف وهو يشير إلى كرسي بجانب طاولة صغيرة تعلوها صينية الشاي: «اجلسي. الشاي يكاد يبرد».

ورغم توقعها رد فعله هذا لغيابها، إلاّ أنها قالت بانزعاج: «آسفة. لم أدرك أنك تحسب وقت غيابي».

فقال بلهجة تعيسة: «لم أكن أحسب الوقت. كنت فقط...».

فقالت باسمة: «متلهفاً لشرب الشاي؟ أعرف هذا. حسناً، ها أنذا هنا. هل تريدني أن أسكبه؟».

فقال: «إذا شئت».

وجرّ كرسياً إلى جانبها ومدّ ساقيه الطويلتين نحو المدفأة حيث كانت النار تستعر: «عليك أن تسامحيني. أميل إلى الشعور بالتملك نحوك».

- تملّك؟

كررت الكلمة بشيء من الضيق. لم تشأ أن يشعر هاري بالتملك نحوها، فهذا ليس نوع العلاقة بينهما.

- نعم تملّك.

ووضع كوب الشاي الذي ناولته إياه ثم مال نحوها: «إيف، ألا ترين أن الوقت حان لكي نجعل علاقتنا أكثر رسوخاً وتماشياً مع الأعراف؟».

- أوه... هاري...

- اسمعيني. يجب أن تعرفي شعوري نحوك. حسناً، عندما سمعت أن رجلاً غريباً في منزلكم لا أنكر أنني شعرت بالغيرة.

وتملكها الذعر. لم تتصور أن هاري قد يشعر بالغيرة، فهو لطالما كان وديعاً مسالماً سهل المعشر.

- هل تلومينني؟ كنت أتوقع منك أن تأتي على ذكره لكنك لم تفعلي.

- ولكن... السيد روميرو ضيف كاسي وليس ضيفي.

www.elromancia.com

وعجبت لمحاسبته لها من دون حق.

- ومع ذلك، فقد عادت ابنة السيدة روبرتسن إلى لندن، أليس كذلك؟

تنفست إيف ساخطة: «نعم. بقي السيد روميرو لأنه مريض فقط. هل لي بقطعة بسكويت؟».

- طبعاً، طبعاً.

وناولها الطبق على الفور، لكن، وفي سرعته هذه، سكب طبق البسكويت على الأرض، فانحنى ليجمع القطع المتناثرة وقد احمر وجهه، وانحنت هي تساعده فاصطدم رأساهما.

- يا لي من أخرق!

وأمسك بكتفيها يرغمها على مواجهته: «هل آلمتك؟».

- ليس كثيراً.

أرادت أن تقلل من أهمية ما حدث لكنها كانت واعية لثقل يديه على كتفيها، وتسارع أنفاسه عندما حدّق في عينيها.

كان عليها أن تتوقع أن يحاول معانقتها لكنها لم تفعل. لقد لمحت نيته هذه قبل أن ينحني نحوها بلحظات فقط إلا أنه استطاع أن يأخذها بين ذراعيه ويضمها إلى صدره.

واحتجت بصرخة مكبوتة لكنه أساء تفسير فعلها، فدفن وجهه في عنقها قائلاً: «عليك أن تعلمي أنني أضحي بالعالم كله كيلا أؤلمك».

لم تستطع أن تبتعد عنه بالسرعة الكافية. وذكرتها يداه الثقيلتان وأنفاسه الخشنة بمحاولة دنيئة لرجل آخر. فاندفعت إلى الخلف من فوق كرسيها واستطاعت أن تضع الطاولة بينها وبينه قبل أن تقول بتوتر: «عليّ أن أذهب».

وقف هاري على وجهه مزيج من الإثارة والحرج: «إيف! لا يمكنك الذهاب الآن. أنت لم تشربي الشاي».

- لا أريد مزيداً منه.

كانت تدرك أن عليها أن تتصرّف بشكل طبيعي، وإلاّ اعتقد هاري أنها غير طبيعية. إنها كذلك، ولكن لا شأن لأحد بهذا. فقالت: «تذكرت لتوّي أني وعدت السيدة روبرتسن بأن أعود في التاسعة».

قطب جبينه: «لم تقولي شيئاً عن ذلك من قبل».

- لقد نسيت.

وابتسمت معتذرة: «يا لها من ذاكرة، أليس كذلك؟».

لكن الشك بقي يراوده: «لن ترحلي لأنني عانقتك، أليس كذلك؟».

- لا...

- إذا كان هذا هو السبب، فأريدك أن تعلمي أن نيتي شريفة تماماً.

زمت شفتيها بقوة وبندم حقيقي: «هاري! أنا لم أتوقع هذا. وهذا كل ما في الأمر».

هزّ هاري رأسه متأملاً: «لكنني ظننت أننا صديقان».

- ونحن صديقان.

- وأننا نفهم بعضنا بعضاً.. ومشاعر بعضنا بعضاً... ألا تهتمين بي على الإطلاق؟

تنهدت. كانت ترجو أن تتجنّب هذا الحديث، فقالت: «أخبرتك لتوي أنني أعتبرك صديقاً، وصديقاً عزيزاً. لكن، حسناً... ما زال الوقت مبكراً للتفكير في شيء آخر».

فقال بمرارة: «ما زال الوقت مبكراً؟ نحن نعرف بعضنا منذ سنة تقريباً يا إيف؟».

وتملكها الضيق فقالت: «أعرف ذلك».

كانت متلهفة لإنهاء هذا الحديث: «أنا آسفة، يا هاري. لكنني لست مستعدة لكي... لكي أفكر بك بتلك الطريقة».

فهتف فجأة: «ذلك الرجل هو السبب، أليس كذلك؟ إنه... ماذا

www.elromancia.com

قلت اسمه؟ روميو أو ما شابه؟».

- إنه السيد روميرو.

- روميرو؟ ما هذا الاسم؟

- إنه من جزيرة من جزر الكاريبي، وهو اسم إسباني، في الواقع. لكنك مخطىء في ظنك هذا.

- أنا لست مخطئاً. رجل مثله هو النوع الذي تنجذبين إليه بسهولة. هل هو جذاب يا إيف؟ هل جعل نبضك يتسارع؟ كان عليّ أن أعلم أن رجلاً من جنسك لن يجد صعوبة في أن يغريك.

فتحت فمها فزعاً ثم وضعت راحتها على شفتيها تسكت صيحة احتجاج أوشكت أن تخرج منهما، وهي ترى هاري، من بين كل الناس، يقول كلاماً كهذا. وتملكها الغثيان. يا إلهي... هل يعلم هو أيضاً أن دماً إسبانياً يجري في عروقها؟

٧ - ضربة قاضية

أدرك هاري غلطته على الفور. وأدرك أنه نطق بكلام لا يغتفر فتشنّج وجهه وبقيت صرخة الكدر التي أطلقها ترن في أذني إيف وهي تفتح الباب وتهرب إلى بيتها.

لكنها لم تتراجع بل اختطفت معطفها من على المشجب، واندفعت خارجة إلى الليل البارد. لم تتوقف لترتدي معطفها حتى أصبحت بعيدة بما يكفي عن مشهد مذلتها.

لكنها بقيت ترتجف، وتساءلت عما إذا كانت ستشعر بالدفء مرة أخرى في حياتها. موقف هاري، من بين كل الناس، جعلها تشعر بالغثيان. ولم تستطع أن تصدق أنه يعتقد أنها تبتعد عنه بسبب جيك روميرو. ماذا يظنها؟

لم تكرر طرح السؤال على نفسها. هزت رأسها وهي تصل إلى أول طريق المنزل بقدرة إلهية وليس بمهارة منها.

ففي الدقائق القليلة الأولى التي تلت مغادرتها، لم تكن تدري إلى أين هي ذاهبة، ثم أدركت أن الاستقرار الذي وفرته لها جدتها العجوز هو الذي أعادها إلى المنزل بخطوات ثابتة.

وعندما بلغت البيت كان البرد قد وصل إلى عظامها فتوجهت مباشرة إلى المكتبة. قد يساعدها الحظ فتجد أن السيدة بلاكوود تركت النار مشتعلة، وتلهفت لأن تجلس أمام دفئها.

كانت تتوقع أن تجد المكتبة مظلمة إلاّ من نار المدفأة فجدتها لم

www.elromancia.com

تنهض لتناول العشاء، وجيك روميرو لم يترك الفراش بعد. لكنها دهشت وهي تفتح الباب لتجد مصباحاً مشتعلاً. وتملكها الذعر وهي ترى الضيف ممدداً على كرسي جدتها، ومجلة ملقاة على معدته. يبدو أنه كان يقرأ لكنه يحدق الآن في اللهب.

سمعها تدخل طبعاً. كانت الغرفة هادئة جداً، وعندما وقف سقطت المجلة على الأرض.

- إيف. آسف لأنني لم أسمع صوت السيارة.

كان صوته لا يزال مبحوحاً قليلاً. وأجابت إيف بفتور: «جئت سيراً على قدميّ».

ورغم أن فكرة الجلوس أمام النار فقدت بريقها، إلاّ أن البرد لم يسمح لها بأن تترك الباب مفتوحاً.

قال بدهشة: «جئت مشياً؟ قالت السيدة بلاكوود إن القسيس سيحضرك بسيارته».

لم تعرف إيف لما يهتمّ لأمرها، لكنها هزت رأسها قائلة: «فضّلت أن أمشي».

ثم تابعت حسب ما هو متوقع منها: «كيف حالك أنت؟».

فهز كتفيه: «لن أموت».

- هل تعرف إيلي أنك تركت الفراش؟

- إيلي؟ أنت تعنين السيدة روبرتسن. أشك في ذلك.

- ولِمَ فعلت؟

فقال آسفاً: «آسف، لكنني كدت أجن في تلك الغرفة. وكانت السيدة بلاكوود قد أخبرتني أنك ستخرجين هذا المساء فارتديت بعض الملابس ونزلت إلى هنا».

وصمت لحظة ثم سأل: «هل استمتعت بأمسيتك؟».

فاجأها سؤاله، ولاحظ هو ذلك. أخذ ينظر إليها وهي مستندة إلى

الباب، فأدرك أنه آخر شخص تريد رؤيته الليلة. وأقر بجفاء بأن أيّ تغيير لم يحدث. ومع ذلك، تملكه شعور بأنها شاحبة تحت التورد الناتج عن البرد، فيما بدت عيناها واسعتين ومغرورقتين بالدموع...

تباً... ما الذي حدث؟ ما الذي قاله لها ذلك القسيس؟ إذا ما حاول التحرّش بها، إذا كان لمسها، فسوف...

نعم... لا بأس.... وكبح جيك مخيلته الخصبة عند هذه النقطة، فهذا أمر لا يعنيه، حتى ولو اغتصبها ذاك الرجل العجوز... لكنه ليس مسؤولاً عنها، وتملكه الشك في أنها سترحب بأي تدخل من جانبه.

- قالت مديرة المنزل إنك ستمضين الأمسية في فرز ما تبرع به المحسنون للمعرض الذي سيقام في الكنيسة. هل هذا صحيح؟

ركّز على الجملة الأخيرة، فزفرت مرتعشة وقالت بصوت خافت: «إنه معرض الخريف».

- حسناً، يبدو أنك تشعرين بالبرد. تعالي واجلسي بقرب النار.

- أظن أنّ عليّ أن أصعد إلى فراشي، فأنا متعبة قليلاً.

واستدارت نحو الباب: «تصبح على خير».

وبالرغم من الصوت الذي هتف به ألاّ يتورط في شؤونها، إلاّ أنه لم يستطع أن يدعها تذهب بهذا الشكل. لذا، تحرك بسرعة رغم مرضه، ووصل إليها قبل أن تفتح الباب كلياً ثم صفقه براحته.

فالتفتت إليه بعينين... خائفتين؟ وقالت بصوت مرتفع يكشف عن الخوف الذي تشعر به: «ماذا تفعل؟ إذا لمستني...».

هتف منزعجاً وهو يرى نفسه في موقع المدافع عن نفسه: «أنا لن ألمسك».

ثم تابع يقول: «أنا مهتم بك. صححي معلوماتك إذا كنت مخطئاً، لكنني أظن أن شيئاً ما حدث فسبب استيائك. هل هناك من وضع يده عليك؟ هل هذا هو السبب في توترك عندما منعتك من فتح الباب؟».

www.elromancia.com

التفتت إليه لكن من دون أن تبتعد عن الباب. بدا واضحاً أنها تبذل جهدها للبقاء بعيدة عنه قدر الإمكان. وأصبح واثقاً الآن من أن السيد موراي هذا أساء إليها بطريقة ما...

- لا. لم يسئ إليّ أحد ما عداك. أردت أن أخرج فمنعتني. ما المفترض أن يخطر لي؟

تكلّمت بصوت مرتجف فزفر غاضباً: «حسناً، ما من داعٍ للخوف مني. أريد فقط أن أساعدك».

فقالت متوترة الأعصاب: «أن تساعدني؟ لا يمكنك أن تساعدني. لا أحد يستطيع ذلك».

جاء جوابها غريباً، لكن لم يكن لدى جيك الطاقة الكافية للاستفهام، فقال: «لا بأس، ما دمت تقولين ذلك».

كان صوته منهكاً، فقالت: «هل يمكنني أن أذهب إذن؟».

- لن أمنعك مرة أخرى.

- هذا حسن.

كان في صوتها تمرّد، ثم استدارت نحو الباب وهي تشدّ معطفها حول جسدها.

لكنها لم تفتحه. وبقيت يدها على المقبض من دون حراك لثوان عدة لتنزلق بعدئذ وتتكوّم عند قدميه بينما هو يراقبها مذهولاً.

تحرك جيك رغم عدم ثقته في أنها ستقبل العون منه، ولكن عليه أن يفعل شيئاً ما. ركع بجانبها ثم حاول أن يديرها لتواجهه.

قاومت في البداية مجفلة وكأنه يهاجمها، فتصاعد غضبه على القسيس موراي. أصبح واثقاً الآن من أن الرجل مسؤول عن محنتها هذه، وتمنى لو يخنقه.

وأخيراً، أفلح في جرها بعيداً عن الباب. وعندما رأى الدموع تسيل على خديها لم يستطع أن يكبح قسماً عنيفاً فتمتم وهو يحملها بين

ذراعيه: «سأقتل ذلك النغل».

بقيت تقاومه قليلاً، إلا أنها همدت في النهاية بين ذراعيه وهي تتأوه شاعرة بالهزيمة.

وشعرت ببرد شديد، بالرغم من المعطف السميك الذي كانت تلفّه حولها. كان وجهها المبلل بالدموع يستريح على كنزته، وكلما تنفست احتكت خصلات شعرها الحريري الأسود بذقنه.

وبحركة لا إرادية تقريباً، مال بفمه على شعرها يستمتع برائحة الليمون في شعرها. كانت يده على رقبتها، وتملكته رغبة ساحقة في أن يدير وجهها إليه.

ثم عبس، هل هو أفضل من موراي؟ وتساءل باشمئزاز عما إذا أصبح من الأنانية بحيث لم يعد يفكر إلاّ بنفسه. إنه في هذا المنزل فقط لأن كاساندرا دعته، ويمكنه أن يتصور رد فعلها إذا رأته الآن.

ذكّر نفسه عابساً بأنّ عليه أن يضع إيف بجانب النار، تبدو بحاجة إلى الدفء خارجاً وداخلاً.

حمل جسدها النحيف الرياضي سهل عليه في الأحوال العادية، فهي أخف وزناً من السيدة العجوز، لكن ذراعيه ارتجفتا عندما رفعها عن الأرض، فلعن المرض الذي جعله بضعف الطفل.

ومع ذلك، وبالرغم من معارضتها، استطاع أن يحملها ويجتاز بها الغرفة إلى المقعد الذي كان يحتله عندما دخلت. بعدئذ، سار إلى الثلاجة الصغيرة الموضوعة في الزاوية بساقين غير ثابتتين.

أخذت إيف تراقبه من تحت أهدابها المسدلة، وهي تمسح خديها بمنديل ورقي وجدته في جيبها. لم تشأ أن تفكر في ما حدث وكم بدت مثيرة للرثاء، مهما بلغ تفهم روميرو... لقد سمحت له بأن يقترب منها أكثر من اللزوم، في حين يُفترض بها بعدما حدث مع هاري، أن تصبح أكثر تعقلاً.

www.elromancia.com

لكنها لم تعرف كيف تتصرف عندما تكهن هو بأن هاري كدّرها. غضبه الفوري من ذلك الرجل، واعتقاده الغريزي بأن ما حدث لم يكن خطأها هي، حطما الحاجز الذي وضعته أمام مشاعرها طوال السنوات الماضية.

عاد يحمل كأسين من كؤوس جدتها البلورية وناولها واحدة منهما: «إنه عصير برتقال فقط، مع الأسف. لم أجد نوعاً آخر».

وكانت يده غير ثابتة.

وجدت نفسها مرغمة على أخذ الكأس من يده، رغم أنها كانت تكره البرتقال. لكنها لاحظت بأن حمله لها سلبه ما بقي له من قوة، فلم تستطع أن تخذله: «شكراً».

أوماً وهو يأخذ جرعة كبيرة من شرابه: «يا إلهي. أنا بحاجة حقاً إلى هذا».

فنظرت إيف إليه: «لا أدري إن كان العصير البارد يناسبك في حالتك الحاضرة».

فقال بجفاء: «هذا الشراب يفيدني أكثر من كل الكاكاو الساخن الذي في العالم. وأنت أيضاً، اشربيه».

فارتجفت: «أنا؟ لا يمكنني أن أشرب هذا».

- اعتبريه دواء سينشطك.

- أشعر بالنشاط والدفء الآن.

وأثبتت ذلك بدفع معطفها الصوفي عن كتفيها، وإذا به يتسمّر لجمال رقبتها البارزة من فتحة عنق قميصها. كان القميص ورديّاً طويل الكمين يتناسب تماماً مع بنطلون الجينز.

ولحسن الحظ، كانت من الانشغال بتسوية ملابسها بحيث لم تلاحظ الحدة المفاجئة في عينيه. بعدئذ، جلس القرفصاء بجانبها كي يغطي ارتباكه ثم قال: «هل ستخبرينني بما حدث؟».

أجفلت لسؤاله. رجت أن يكون المجهود قد ألهاه عن التفكير بذلك لكن رجاءها خاب.

- حدث متى؟

وأدرك أنها ما زالت تتمنى أن تتجنب المواجهة وتابعت تقول عابسة: «لا بد أن البرد أضرّ بي فليس من عادتي أن يتملكني الإنهاك إلى هذا الحد».

تجاهل ردّها هذا، ومد يده يمسك بذقنها: «إيف! هذا «الإنهاك» كما تسمينه، لا علاقة له بالبرد، بل علاقته الوحيدة هي بالقسيس موراي. أخبريني فقط عما فعله ذلك العجوز الأحمق. هل ألحق بك أيّ أذى؟

حاولت أن تخلص ذقنها من يده، وعندما لم تنجح نظرت إليه بترفع وقالت باستخفاف: «هاري ليس عجوزاً. ولعله أصغر منك».

عندئذ، تركها ووقف وهو يفكر بغضب وعدم تصديق في ما تقوله. فبينما هو يتصورها تحت رحمة قسيس عجوز منحرف، كانت قد أمضت السهرة مع رجل. لعله كان ينتظر جواباً مختلفاً على عرض تقدّم به؟

قال غير قادر على كبح استيائه: «ما الذي حدث إذن؟ خصام عشاق؟ عدم اتفاق؟ أم أنه تركك من أجل امرأة أخرى؟».

أجفلت وكأنه ضربها. تباً! إنه لم يكن مخطئاً. لقد حدث شيء ما... شيء سيء، وهو لم يفعل سوى أن زاد الأمور سوءً باتهاماته الغبية لها.

- إيف...

لكنها كانت قد وقفت على قدميها وأخذت تلف معطفها حولها، ناظرة إلى كل مكان ما عداه. وتملكه العجب لغبائه هذا. فقدانها تمالكها المعتاد لنفسها، يستلزم أكثر من مجرد خصام مع صديقها: «إيف أنا آسف جداً».

www.elromancia.com

لكنها لم تكن تصغي وهي تمر بجانبه متوجّهة إلى الباب برغبة واضحة في الابتعاد عنه قدر إمكانها.

زفر بخشونة. لا يمكنه أن يدعها تخرج بهذا الشكل، عليه أن يفهمها أنه شعر بما يشبه الغدر عندما أخبرته أن موراي شاب فتي، وأن محاولته التصرف بشهامة فقدت قيمتها عندما أدرك أنها على علاقة برجل ما.

لكنه تذكر أن لا علاقة له بعلاقات إيف ومصلحتها.

كل ما يعرفه هو أنه إذا سمح لها بالخروج من هذه الغرفة من دون أن تقبل اعتذاره فلن يسامح نفسه أبداً.

صرف بأسنانه ثم مدّ يده يمسك بطرف كم معطفها، وهي تمرّ بجانبه: «انتظري».

شدّت كمها بعنف، وعندما لم يتركها خلعت المعطف بكل بساطة، وألقت به إلى الأرض، ثم سارت فوقه فتعثرت به. شتم وهو يسير فوق المعطف ويمسك بمعصمها ليقول متوسلاً، هو يرغمها على الوقوف: «أرجوك، يا إيف. عليك أن تمنحيني فرصة لأشرح لك الأمر».

- تشرح ماذا؟ أظنك تعتبر أن لا بأس في أن يعامل الرجل بخشونة امرأة يفترض به أن يحترمها.

لم يستطع إلاّ أن يعجب بقوة إرادتها التي جعلتها ترفع رأسها وتقابل عينيه. وقال بذعر: «كلا! أهذا ما فعله؟».

وأخذ يبحث عن طريقة مناسبة يصف بها ذلك بينما كان يفكر في طريقة الانتقام وأضاف: «أظنه استغلك، أليس كذلك؟».

بدا وكأنها لا تريد أن تجيب، ثم ما لبثت أن اندفعت تقول بألم: «لقد عانقني!».

وسرعان ما أدركت ما سيظنه. ما هو العناق بين الأصدقاء؟ كيف

يمكنها أن تشرح ما شعرت به من اعتداء صارخ على شرفها عندما أمسكها هاري وضمها إلى صدرها من دون أن تبدو وكأنها مصابة بجنون الارتياب؟ جيك لا يعرف شيئاً عن ماضيها، وليس في نيتها أن تخبره.

- تقولين إنه عانقك؟

ورغم أنه حاول إخفاء نبرة عدم التصديق في صوته، إلاّ أنها لاحظت وجودها.

قالت محاولة أن تحدق فيه من دون أن تفلح: «نعم، عانقني. أظنك تعتبرني غريبة الأطوار، تجعل من الحبة قبة، وتثور من كل أمر تافه».

ضاقت عينا جيك وقال بدهاء أكثر مما توقعت: «لكنه ليس أمراً تافهاً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟».

رفعت يدها تسوّي خصلة من شعرها: «ليس السبب العناق... بل ما جاء بعده».

وسكتت لا تريد أن تتابع كلامها، لكنه كان لطيفاً للغاية معها ويستحق بعض الشرح: «عندما اعترضت على تصرفه، اتهمني بأنني أفضّل شخصاً آخر».

حدّق فيها جيك بحذر. تباً! كان يتصور أن لديها القليل من الأصدقاء إذ تحتجزها هنا عجوز كثيرة الجدل. ولكن يبدو أنه ليس لديها معجب وحسب، ولكن أكثر من واحد. أزعجه هذا للغاية، وهذا ما لا ينبغي أن يحدث...

وأخيراً قال: «فهمت».

وإذ أدرك أنه ما زال قابضاً على معصمها بعنف، خفف الضغط وسألها: «وهل هذا صحيح؟ هل تفضلين شخصاً آخر؟».

احمر وجهها: «كلا».

www.elromancia.com

- أنت إذن... ماذا أقول... لا تحبين الرجال بشكل عام.

انتزعت معصمها من يده وأخذت تدعك مكان يده وتمسح أي أثر لرائحته عن جلدها.

- هل تصرفت على هذا النحو عندما لمسك موراي؟ لأن علي أن أقول إنه من المذلّ جداً للرجل أن تعامله المرأة وكأنه مصاب بعدوى مهلكة.

وجد صوته خشناً في أذنيه.

- أنا لا أفعل هذا. أنت لا تفهمني.

ورغم الجهد الذي بذلته للتحكم بأعصابها، فاجأها اتهامه هذا.

- أفهميني إذن!

- لا أستطيع.

- أم لا تريدين؟

فهزت رأسها: «لِمَ عليك أن تهتم بي؟».

- عليّ اللعنة إذا كنت أعلم. ولكن هذا ما يحدث.

وتكهرب الجو فجأة، لم يعلم جيك ما إذا كان تصور ذلك، أم أن ثمة تفاعل ما في الأجواء؟ على أيّ حال، فقد قدرته على التحكم بنفسه، فاقترب منها كثيراً، ثم نظر إلى وجهها المجفل: «المسيني. أعدك بألاّ أعضك».

هزت رأسها، لكنها لم تبتعد: «هذا جنون».

وانحدرت نظراته إلى مشهد بشرتها السمراء المثيرة وعاد يقول عابساً: «افعلي هذا من أجلي على الأقل لتداوي مشاعري».

تسارعت أنفاس إيف: «لا أعتقد أن في ما قلته ما جرح مشاعرك. ولكن إذا ما حدث هذا، فأنا آسفة».

- أثبتي ذلك.

- كيف؟

نعم كيف؟ أمل ألاّ يكون طموحاً أكثر مما يجب إذ خطر له أن بإمكانه أن يشفي ما بقي يتفاعل في نفسها سنوات. لم يكن لديه خبرة حقيقية بالمخاوف أو المشاكل النفسية، لكنه أحس بأنّ مشاكلها لن تزول بمجرد تجاهلها.

قال راجياً ألاّ يكون متفائلاً أكثر مما يجب في ظنه أن بإمكانه أن يسيطر على الموقف: «اقتربي مني».

مجرد وقوفه قريباً منها بهذا الشكل، مستنشقاً رائحة أنوثتها، كان مثيراً للغاية وكافياً ليدير رأسه. وأخذت تزداد صعوبة تذكره من هي بالضبط وسبب وجوده هنا.

وتساءل عما إذا قرأت أفكاره عندما قالت فجأة: «عليّ أن أذهب الآن. أشكر لك... إصغاءك إليّ. والحق معك. لعلي تصرفت بشكل مبالغ فيه. وبالنسبة إلى هاري، عليّ أن أقول إنه لم يفعل أي شيء يسيء إليّ من قبل».

فليذهب هاري إلى الجحيم! ومنع نفسه من أن يقول ذلك بصوت مرتفع. سيسعده ألاّ يسمع اسم هذاالرجل مرة أخرى. قال وقد انقبضت يداه بجانبه: «لا أتذكر أنني قلت إنك تصرفت بشكل مبالغ فيه. كما أنني لا أعرف ما قاله ذلك النغل، لأنك لم تخبريني».

أصرّت وهي تتراجع عنه خطوة ذات معنى: «لم يكن ذلك أمراً هاماً».

وارتفعت يداه بشكل آلي يمنعها من الابتعاد عنه ثم قال يذكرها بعنف: «بل كان من الأهمية بحيث دفعك إلى البكاء».

وقبل أن يستطيع منع نفسه، استقرت يداه على خصرها.

لم يعرف أيهما كانت صدمته أقوى... هو أم هي. لم يكن ينوي أن يلمسها. تباً! لقد أمضت لتوها الربع الساعة الأخيرة وهي توضح له

www.elromancia.com

أنها لا تحب أن يلمسها أحد. ولكن حالما استقرت أصابعه على جلدها الدافىء والناعم إلى حد لا يصدّق، ذهبت شكوكه مع الريح.

- كلا.

خرجت هذه الكلمة من بين شفتيها ضعيفة، ففكر في عدم جدوى هذا الاعتراض. أخذ صدرها يعلو ويهبط وهي تحاول الابتعاد عنه وقد تملكها الاضطراب. رأى أن من غير الممكن مقاومتها، فتخلّى عن كل محاولة للعب دور البطل الشهم، وأحنى رأسه ليعانقها.

كانت أنفاسها غير منتظمة، تتخللها شهقات قصيرة. لم تلمسه رغم أنه كان عليه أن يمسك بها كيلا تفقد توازنها.

لم يكن هذا هو رد الفعل الذي توقعه إذ توقع أن تقاومه طوال الوقت. لكن، وباستثناء الشعور بشيء من التصلب، أذعنت لعناقه من دون مقاومة. وانتهى إلى استنتاج متغطرس وهو أن ما سبّب لها الاضطراب البالغ ليس لأن رجلاً لمسها، بل لأن الذي لمسها ليس الرجل المناسب.

أسعدته الفكرة فازدادت جرأته. وأدرك على الفور مدى الضعف الذي ما زال يتملكه.

أخذ يترنح على قدميه، فحمد الله على أنها لم تحاول مقاومته. وجاء الإذلال بسرعة وبشكل مدمّر. وعندما تذكره لاحقاً، أدرك أنه كان عليه أن يتوقّع ما حصل. لم تكن إيف ميّالة إلى الإذعان. بل ترقبت الفرصة المواتية. وفي اللحظة التي أظهر فيها الضعف، كانت جاهزة للضرب.

ترنّح وارتجفت ساقاه للجهد الذي بذله للبقاء واقفاً، فرفع رأسه وهو يطرف بعينيه مجاهداً للتركيز بعد أن أصابه دوار. وعلى الفور حاولت إيف أن تنتقم.

وكانت لتنجح لو لم يختر هذه اللحظة ليبتعد عنها. انحنى إلى الأمام

وهو يكافح ليلتقط أنفاسه في اللحظة التي لطمته فيها بركبتها بين ساقيه. هذه الضربة الضعيفة لم تصل إلى هدفها، لكنها كانت كافية لترسله مترنحاً إلى المكتب. تأوه فظنت أنها أنجزت ما تريد. عندئذ، اختطفت معطفها وهربت من الغرفة.

www.elromancia.com

٨ - رحيل من دون وداع

الضوء الذي تسرّب من خلال الستائر جعل إيف تقفز من السرير وهي تتساءل عن الساعة، فهي غالباً ما تستيقظ والظلام لم ينقشع بعد.

سارت متعثرة إلى النافذة وهي تضع ساعتها. أزاحت الستائر فتدفق نور الشمس إلى الغرفة، وأعلمتها النظرة التي ألقتها على ساعتها أنها العاشرة تقريباً تملكها الذعر. لقد تأخرت في النوم، لكنها ما لبثت أن تذكرت أنها بقيت مستيقظة حتى الفجر... فلا عجب في أن تتأخر في النوم.

ومع ذلك، لا يغير هذا حقيقة أن هذا اليوم هو يوم عمل. وبما أنها تعرف أن المدرسة ستقفل أبوابها، لم يكن تخلفها عن دروسها في صالحها. فما الذي سيُكتب في الإفادة التي ستعطى لها عند نهاية العمل؟

في الطابق السفلي، أخبرت إيف مديرة المنزل أن لا وقت لديها لتناول الفطور. لكن المرأة قالت: «لكن السيد روميرو قال أن ندعك نائمة».

وشعرت إيف بوخزة من الضيق. وتساءلت عما أخبرها به السيد روميرو غير هذا؟ كيف ستتمكن من مواجهته بعد ما حدث بينهما ليلة البارحة؟

سألتها بفتور راجية ألا تراه قبل ذهابها إلى المدرسة: «وأين... أين السيد روميرو؟».

لعل مرور أربع وعشرين ساعة يمحو من ذهنه ما فعلت.

ما فعلت؟

وكانت مديرة المنزل تتحدث: «ألا تعلمين؟ ظننتك ودّعته مساء أمس. لقد رحل... أظن في الثامنة والنصف».

فقالت إيف بارتباك: «ماذا تعنين بقولك إنه رحل؟... أتعنين أنه خرج؟».

- بل عاد إلى لندن. قلت له إن صحته لا تساعده على قيادة السيارة طوال ذلك الطريق. لكنه أصرّ على قوله إنه مضطر إلى ذلك. لا بد أنه تلقى اتصالاً هاتفياً أو ما شابه. على أيّ حال، هذا ليس من شأني.

شعرت إيف بموجة من الاكتئاب تكتسحها وقالت: «أظن أنّ عليّ أن أخبر إيلي برحيله».

- لكنها تعرف. لقد تحدث السيد روميرو إليها قبل رحيله. السيدة لم توافق على رحيله، لكن ماذا بإمكانها أن تفعل؟ كان مصراً على الرحيل.

هبطت كتفا إيف: «هكذا إذن».

نظرت إليها مديرة المنزل بقلق: «هل أنت بخير؟ تبدين شاحبة للغاية. هل أنت واثقة من أنك لا تعانين نفس ما كان السيد روميرو يعانيه؟».

فقالت إيف ساخرة: «تعنين الإنفلونزا؟ لا، أنا بخير. إنه مجرد تعب ليس إلاّ».

- حسناً، انتبهي إلى نفسك. وذهابك من دون فطور تصرف أحمق في هذه الأيام الباردة.

- سأشرب القهوة في المدرسة. إلى اللقاء.

www.elromancia.com

وغادرت البيت راجية ألاّ تتأخر عن موعد القهوة في المدرسة. كان الجو بارداً رغم أشعة الشمس. وفي آخر طريق البيت، وقفت شاعرة بالانتعاش. كان بإمكانها أن تستعمل سيارة جدتها، لكنها قديمة ما يجعلها عادةً تفضل أن تمشي. كما أن ذهنها مشغول بأمور أخرى، ولهذا لا تثق بنفسها وراء عجلة القيادة.

لم يخفف من اكتئابها أن تدرك أن رحيل روميرو أراحها من أي حرج قد تشعر به، حين تراه مرة أخرى. وبالرغم مما راحت تقنع نفسها به، أرادت في أعماقها أن تتحدث إليه، أن تتأكد من أنها لم تسبب له أي ضرر بتصرفها الطائش.

وفجأة، حبست أنفاسها. كيف أمكنها أن تشعر بهذا الشكل؟ بالمقارنة مع جيك روميرو، يبدو سلوك هاري بريئاً. ورغبته في أن يثبت لها حبه مختلفة تماماً عن نية روميرو. فلماذا إذن تهتم بما إذا كانت آذته؟ وإذا ما اشمأزت حقاً عندما لمسها جيك، فلا ينبغي أن تهتم بحقيقة أنها لن تراه بعد الآن أبداً.

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة لسوء الحظ. وأدركت أنها، لأول مرة في حياتها، تختبر مشاعر لم تكن تعلم بوجودها. في الواقع، لو لم يكشف مبلغ ضعفه، لما استطاعت أن تؤذيه بتلك السهولة.

لكن ما الفائدة؟ بعد كل تلك السنوات التي أمضتها بعيدة عن الرجال، أتراها تعرف حقاً؟ إنها تعرف ما يريده الرجل، وإلى أي حد هو مستعد أن يصل لكي يحصل عليه. كما يمكنها أن ترى أن ما حدث الليلة الماضية لا علاقة له بهذا.

في الحقيقة، هي لا تعرف شيئاً عن «العلاقة التوافقية» وهو النوع الذي يربط كاسي بجيك روميرو.

ارتجفت إيف. هذا الأمر وحده من شأنه أن يقنعها بأن قرارها

صائب. مهما كان ما يريده روميرو، فهو شيء لا يمكنها أن تعطيه، وعليها أن تكون مسرورة لرحيله قبل أن تفعل ما تندم عليه.

ومع ذلك لم يمنعها هذا من التفكير فيه أثناء النهار الطويل الذي تلا رحيله.

تفهّمت السيدة بورتمان موقفها عندما شرحت لها بصدق أنها تأخرت لأنها لم تنم جيداً. لكن إيف تمنت لو أن المديرة ثارت وغضبت لتجد ما يقلقها بدلاً من أن تفكّر في ما كان يمكن أن يحدث.

ذكرى شعورها عندما عانقها جيك عاودتها تلك الليلة وفي ليالٍ كثيرة أخرى في ما بعد. ومهما بدا مظهرها متعقلاً في ساعات النهار، كان عقلها الباطن يصر على تعذيبها ليلاً فيعيد عليها المشهد الذي جمعها وجيك مرة بعد مرة.

* * *

عاد جيك وحده إلى موطنه لقضاء عيد الميلاد. منذ عودته إلى لندن في نهاية شهر تشرين الثاني، نجح في تجنب أي لقاء حميم مع كاساندرا. ورغم أنها عبّرت مراراً عن انزعاجها عبر الهاتف إلاّ أنها انشغلت بإعلانها، ما خفف من شكواها.

أما جيك فلم تجد تفسيراً لنفوره المفاجيء من صحبتها. الأمر المؤكد هو أن معاملتها لأمها لم تعجبه لكنه لم يحدث قط من قبل أن اعتبر العلاقة العائلية السليمة شرطاً أساسياً في الرفيقة.

لِمَ وافق إذن على الذهاب إلى شمال إنكلترا مع كاساندرا؟ قد يقول غيره إن سفره هذا كان خطة من القدر للتعرف إلى إيف، لكنه ليس مستعداً لتقبّل هذه النظرية. لقد كرهته الفتاة من النظرة الأولى وبعد ردّ فعلها على عناقه، لم يبق ثمة سبب يجعله يرغب في أن يراها مرة أخرى.

www.elromancia.com

لكنه عاد ورغب في ذلك، وهذا أحد الأسباب التي جعلته يعود إلى سانت فيليب لقضاء عيد الميلاد. لكنه ليس السبب الرئيسي بل الإنفلونزا التي ما زال يشعر بها. فهو بحاجة إلى أشعة الشمس بعد الأسابيع التي أمضاها في أوروبا أثناء فصل الشتاء.

ورغم هذا، لم يكن ينوي الرحيل. فمعرض المراكب الإنكليزي يبدأ في أوائل كانون الأول. لذا، ارتأى أن ينتظر انتهاء هذا المعرض قبل أن يعود إلى موطنه. لكنه ألزم نفسه برحلتين طويلتين في أقل من أسبوعين، وأثار غضب كاساندرا لعدم تفكيره فيها على الإطلاق.

لم يكن هذا يعني أن عليه أن يحسب حساب مشاعرها عندما يخطط للقيام برحلة، بل على العكس. فقد شغلت ذهنه فتاة شابة أخرى تمضي العطلة في جوّ بارد غير مضياف مع رفيقتين مستّين لا غير.

وهاري موراي، كما ذكّر نفسه بعنف. لعلها غيّرت رأيها بالنسبة إلى القسيس بعد تصرفه ذاك معها.

عاد من إجازته القصيرة ليجد مجموعة من الرسائل من كاساندرا تنتظره في فندقه. ويبدو أنها ما انفكت تتصل به في الأيام الثلاثة الأخيرة. وضع الرسائل التي سلمتها له موظفة الاستقبال في جيبه مصمماً على أن يقرأها عندما لا يكون مكتئباً أو متعباً من الطيران، فكل ما يريده الآن هو حمام سريع وشراب وسرير. كل ما كتبته كاساندرا يمكن أن ينتظر حتى صباح اليوم التالي.

فرغم أن الوقت لا يزال منتصف الصباح إلاّ أن جيك استحم وأنزل الستائر على النوافذ ثم لجأ إلى السرير.

ولأول مرة نام على الفور. لكنه لم يكن محظوظاً جداً إذ رن الهاتف على المنضدة بجانبه بعد نصف ساعة.

تمتم محاولاً أن يتناول السماعة من دون أن يرفع رأسه عن

الوسادة: «تباً!».

سقطت السماعة من يده على الأرض، فأخذ يشتم مرة أخرى وهو يجر نفسه ليسحبها ثم يضعها على أذنه: «نعم؟».

- جيك، حبيبي. أهذا أنت؟

كشّر. إنها كاساندرا. وعاد يلقي بنفسه على الوسادة. كان عليه أن يعلم وأن يطلب من الموظفة عدم تحويل أيّ اتصالات له حتى الصباح التالي. وبما أنه لا يستطيع أن ينكر وجوده، أجاب آملاً أن تلحظ اللوم في صوته: «كاساندرا، كنت سأتصل بك لاحقاً، عندما أستيقظ».

وكان هذا كذباً. بدا عليها الارتباك لحظة: «أنت نائم؟ لكن الساعة هي الحادية عشرة والنصف صباحاً».

فقال متحكماً بطباعه بجهد: «إنها الخامسة والنصف في سان فيليب. لقد وصلت لتوّي».

- نعم. أعلم هذا. أخبرتني الموظفة في الفندق أنهم يتوقعون حضورك اليوم.

- أحقاً؟

لم يبدُ على كاساندرا أنها لاحظت التوتر في صوته، فأجابت: «نعم. أظنها شعرت بالأسف من أجلي. منذ أيام وأنا أحاول الاتصال بك. أظنك قلت إنك لن تغيب سوى يومين؟».

فقال بإيجاز: «غبت خمسة أيام فقط. جئت في رحلة متأخرة».

ترددت كاساندرا لحظة: «أنت إذن في السرير الآن؟».

- أظنني قلت هذا لتوّي.

- أتريدني أن آتي إليك؟ يمكنني أن أقوم بتدليكك. هل أخبرتك؟ إحدى الفتيات العاملات في الإعلان علمتني الحركات المناسبة، وهي تقول إن لدي موهبة كبيرة...

فقاطعها: «كاساندرا، لِمَ اتصلت بي؟ لا أصدق أنك أيقظتني

www.elromancia.com

لتخبريني عن مدى مهارتك في التدليك! لقد تركت لي من الرسائل ما جعلني أظن أنّ كارثة ما حصلت، بدلاً من...».

قاطعته قبل أن ينهي كلامه: «ماما أصيبت بسكتة دماغية».

وفجأة، استيقظ كل عصب في جسد جيك، فيما أردفت: «حدث ذلك ليلة العيد. أتصدق ذلك؟ أردت أن أخبرك قبل الآن، لكنك كنت بعيداً وهاتفك الخلوي مقفلاً».

وخطر له عابساً أنه أقفله عمداً. ذهل لهذا الخبر، لم يستطع أن يصدق أن أمها تعرّضت لعارض صحي خطير. بدت صلبة قوية لا تُقهر. وإيف...؟ ما هو شعور إيف؟ لقد شعر بأن عاطفة حقيقية تربطها بمستخدمتها.

سألها وقد استيقظ تماماً: «كيف حالها الآن؟ لا شك أنك رأيتها؟».

سادت لحظة طويلة من الصمت، ثم أجابت: «في الواقع... لم أرها».

- لم تريها؟

فأسرعت تقول: «كلا. كنت سأسافر لرؤيتها. أنت تعرف أنني كنت سأفعل. لكنها ستصبح على ما يرام. لم يصبها شلل أو أي شيء آخر. قالت إيف إنها أصيبت في البداية بشيء من التنميل لكنه ما لبث أن تلاشى، وهذا لم يمنعها من الحديث...».

زفر جيك وقال مذعوراً: «لا أستطيع أن أصدق أنك لم تذهبي لرؤيتها. تباً كاساندرا! قد تكون السكتة مميتة».

فقالت بلهجة دفاعية: «أعلم هذا».

- ولم تفكري في أن واجبك أن تذهبي للاطمئنان عليها بنفسك؟ كاساندرا. المريض يريد أسرته من حوله في محنة كهذه.

فقالت باستياء: «أعرف هذا. ولكن عندها إيف، أليس كذلك؟».

فشخر ساخراً: «إيف؟ نعم. تلك قصة أخرى. أنت لم تفكري في أنها تستحق بعض العون، هي أيضاً».

- إيف لا تحتاج إلى عون مني.

- تعنين أنّ أحداً يعرض عليها ذلك.

شهقت كاساندرا: «ماذا تعني بذلك؟ ما الذي أخبرتك به؟».

فردّ عليها بحدة: «لم تخبرني إيف بشيء».

أدرك أنه أخطأ بالنسبة إلى إيف، وتابع: «أرى فقط أن هذا أكثر من أن نتوقعه من فتاة لم تكد تتجاوز سن المراهقة، لا سيّما إذا كانت علاقتها بأمك ضعيفة للغاية، وهذا أقل ما يقال».

- حسناً، قد تكون محقاً. ولكنها ليست من حداثة السن كما تظن. إنها في الخامسة والعشرين.

قال بفتور: «إنها ما زالت فتية».

ورأى أنه قد يثير شكوكها مرة أخرى، فأضاف: «هل السيدة روبرتسن في مستشفى نيوكاسل؟».

- ليست في المستشفى، إنها في البيت.

فسألها: «في القرية؟».

- وأين إذن؟

- ومن يعتني بها؟

تنهدت باستياء: «حسناً، أظن أنّ إيف ومديرة المنزل تعتنيان بها. إيف ما زالت في إجازة».

- أتعنين من المدرسة؟

- طبعاً. لا أراك تظن أنها سافرت في إجازة كما فعلت أنت.

فقال: «أنا عدت إلى موطني. لِمَ لاتذهب إيف في إجازة إذا شاءت؟ إنها تستحق عطلة، مثل أي شخص آخر».

www.elromancia.com

- ليس عندما تكون ماما مريضة.

وسرعان ما أدركت أنها أدانت نفسها بقولها هذا، فتابعت تقول: «حسناً. ما كانت لتذهب على أيّ حال. إيف لا تفعل هذا».

أقرّ مفكراً: «هذا صحيح».

كان يشعر بأن ثمة أمور كثيرة لا تقوم إيف بها. وكان متلهفاً إلى معرفة السبب.

- على كل حال، متى سأراك؟

(أنت تمزحين، أليس كذلك؟).

مضت لحظة مفزعة شعر جيك أثناءها بأنه قال هذه الكلمات بصوت مرتفع، لكنه سرعان ما أدرك من انتظارها لجوابه أنه لم يفعل. وفكر في جواب: «لقد عدت لتوي من سان فيليب، ولديّ ارتباطات كثيرة».

- أنت إذن لا تريد أن تسمع أخباري؟

فتنهد: «أظنني فعلت هذا لتوّي».

- لا، أعني أخباري الخاصة، عن دوري في إعلان إيفرمور.

وسكتت لتسمع جوابه، وعندما لم يجب تابعت باستياء: «ظننت أنه سيسرّك أن تسمع أن العرض التمهيدي للصحافة كان إيجابياً، ما جعلهم يعرضون عليّ تمديد العقد ثلاثة أشهر».

- هذا عظيم.

وتساءل كيف تعتبر هذا الأمر أهم من صحة أمها: «وهكذا سيكون عملك في لندن في المستقبل القريب».

- نعم. هذا رائع، أليس كذلك؟ ستجدني أينما تكون في المدينة.

وأخذ يفكر حانقاً لما يؤثر فيه سلوكها الذي لا يراعي مشاعر الآخرين إلى هذا الحد. لا بأس. لقد أحبّ أمها، ولكن ماذا بعد؟ إنه غير مسؤول عن تقصير كاساندرا نحوها.

لا، الحقيقة هي أن إيف هي من يهمه. كيف يُتوقّع منها أن تتحمل عواقب مرض سيدتها العجوز. وراح يفكر متى ينهي أعماله ليستقل الطائرة إلى نورث أمبرلاند.

www.elromancia.com

٩ ـ لن تستطيع أن تنساها!

كان الوقت متأخراً عندما وصل جيك إلى قرية ووترسميث. لقد استطاع أن يحجز مقعداً في رحلة بعد الظهر، لكنه وصل متأخراً إلى المنزل إذ تعقدت الأمور أثناء استئجاره سيارة.

كانت الأضواء تتسرب كالعادة، من نوافذ الطابق السفلي رغم أن الستائر مسدلة. وهكذا، وصلت سيارته التي لم يجد سواها في المرآب من دون أن يلحظها أحد. وترجّل جيك وأقفل باب السيارة قبل أن يتجه إلى الباب.

كان البرد قاسياً للغاية، لكنه استعد لذلك هذه المرة فقد اشترى معطفاً من الكشمير في هيثرو. ورغم أنه لم يعبأ بشد حزامه، إلا أنه كان دافئاً بشكل لا يصدّق.

فتح له الباب رجل غريب، فحدّق جيك فيه بعينين حذرتين. من هذا بحق الجحيم؟ لا يمكن أن يكون القسيس موراي. هل عاد هذا النغل ليزعج إيف أثناء مرض السيدة روبرتسن؟ وتمنى ألاّ يكون هنا لأن السيدة العجوز ساءت حالتها.

- نعم؟ أي خدمة؟

كان في لهجة الرجل من الثقة ما جعل جيك يبدّل رأيه. كما أن إيف قالت إن موراي شاب، بينما هذا الرجل يقارب الخمسين. لعله الطبيب؟ تباً، لم يكن مستعداً لاحتمال كهذا.

- اسمي روميرو. أنا صديق لـ...

لا يمكنه أن يقول الشهرة فأكمل كلامه: «لابنة السيدة روبرتسن».

- نعم. كاسي ليست هنا.

- أعلم هذا...

- من هذا يا آدم؟

سمع جيك صوت إيف قبل أن يراها، وتحيّر وهو يشعر بانقباض في داخله. كان متوجساً من رؤيتها مرة أخرى، متوجساً مما عساها تقوله عندما تراه.

التفت من يسمى آدم حين اقتربت. ولأن اهتمامها كان منصباً عليه، أتيحت لجيك فرصة تأملها قبل أن تراه.

رآها متعبة، فعيناها الرماديتان محاطتان بهالتين قاتمتين. بدا واضحاً أنها لا تنام جيداً، ولعلها قلقة على السيدة العجوز على عكس كاساندرا. حتى شعرها لم يكن مسرّحاً على شكل ضفيرة كما اعتادت من قبل بل كان مربوطاً إلى الخلف بشريطة سمحت لشعرها الحريري الأسود بالانسدال على كتفي سترتها الصوفية الفضفاضة ما جعلها تبدو أصغر سناً. وشعر نحوها بانجذاب ملحّ بقدر ما هو في غير مكانه.

- جيك... سيد روميرو؟

رأته الآن فاتسعت عيناها بعدم تصديق وأردفت: «ما الذي تفعله هنا؟ هل كاسي معك؟».

ونظرت خلفه، فأجاب: «لا».

لم يكن هذا هو الترحيب الذي يتمناه لكنه لم يكن غير متوقع. على أيّ حال، تدخل الرجل الآخر يسألها بدهشة: «أتعرفينه؟ كنت أخبره لتوي أن كاسي ليست هنا».

- أنا أعلم هذا.

كان جيك يجاهد لإبعاد التوتر عن صوته، لكنه لم يشأ أن يدع هذا الرجل يشوّه أسباب حضوره إلى هنا، وتابع يقول: «هل يمكنني الدخول؟».

www.elromancia.com

نظرت إيف إلى الرجل الذي بجانبها ثم تراجعت إلى الخلف وهي تقول بفتور: «طبعاً. أنت وحدك كما أظن. هل أرسلتك كاسي؟».

فأجاب بفتور هو أيضاً: «لا... لم... ترسلني».

ودخل متجاهلاً تحديق آدم المتذمر فيه... ومتنفساً الصعداء عندما أغلق الباب خلفه: «كيف حال السيدة؟».

بدت الدهشة على إيف: «هل تعرف أنها مريضة؟».

فتنهد: «هذا واضح».

- إذن، كاسي أرسلتك؟

- لا.

- لكنها تعرف أنك هنا.

فهز رأسه: «وهذا أيضاً لا».

- إذن، كيف...

- لقد تحدثت إلى كاساندرا، وهذا كل ما في الأمر.

بدا كأنها لم تفهم. وبدا أن آدم قرر أن يستحق أن يعرف ما يجري، فقال وهو ينظر إلى جيك بارتياب: «من هو هذا الشاب، يا إيف؟ أظنه قال إنه من أصدقاء كاسي».

- وهو كذلك.

لم تستطع إيف أن تلومه لعدم فهمه فثمة صراع يدور داخلها هي أيضاً ويتمحور حول حضور جيك. من العبث أن تكون موضوعية فيما مجرد رؤيته مرة أخرى قضت على كل ما توصلت إليه بجهد من عدم الاكتراث به.

وضعت من دون وعي يدها على قلبها الذي شعرت به فجأة فارغاً، إذ بدا لها رائعاً في معطفه الطويل المصنوع من وبر الجمل، والمفتوح على بنطلون أسود وكنزة تماثله لوناً، وحذائه الأسود. بدا أروع مما تتذكره، وتلهفت لأن تخبره بمدى سرورها لرؤيته.

لكنها لم تستطع أن تفعل هذا إذ وقف آدم يتأمله بحذر، كما أنّ جيك لا يزال مع كاسي.

- ما دام من أصدقاء كاسي، وقال إنه يعلم أن كاسي ليست هنا، لماذا جاء؟

فقال جيك بمودّة: «بإمكانك أن تسألني أنا».

ثم التفت إلى إيف: «لم تخبريني عن حال السيدة روبرتسن».

- حالة أمي لا بأس بها، ماذا يهمك من ذلك؟

وتملك جيك ارتياح بالغ وهو يكتشف أن آدم ما هو إلا شقيق كاساندرا وليس معجباً مجهولاً بإيف. وتدخلت إيف قائلة: «آدم، أنت لا تفهم...»

فقاطعها جيك يجيب عن سؤاله له بلطف: «كنت ضيف أختك هنا في شهر تشرين الثاني الماضي. وقد عرفت والدتك حينذاك وأحببتها، وعندما قالت كاساندرا...».

- من؟

فقال جيك بصبر، لأنه يعرف أن أسرتها لا تستعمل اسمها الكامل: «كاساندرا. عندما أخبرتني أن أمك تعرّضت لسكتة دماغية، تملكني القلق عليها».

- بعكس كاسي وهو اسمها الحقيقي، بالمناسبة. كاساندرا مجرد اسم للمظاهر تستعمله أثناء التمثيل.

- آدم...

حاولت إيف التدخل مرة أخرى، لكن آدم لم يسمح لها وتابع وهو ينظر إليها شزراً: «ما زلت لا أفهم. هل ثمة ما يدور هنا ولا أعرفه؟».

- كلا!

خرج إنكارها من كل قلبها، كما أن جيك الذي لم يكن في نيته مناقشة تصرفاته مع آدم، رأى أن أي رجل أقل غطرسة منه سيعتبر هذا

www.elromancia.com

إشارة له ليخرج من هنا. لكنه لم يفعل هذا. وأضافت وهي ترمقه من تحت أهدابها بنظرة ذات معنى: «اسمع، لماذا لا نذهب جميعاً إلى المكتبة؟ فالجو هناك أكثر دفئاً. ويمكننا، على الأقل، أن نقدم للسيد روميرو شراباً، يا آدم».

هز آدم كتفيه الضخمتين. كان يشبه أمه أكثر من أخته، وبدا واضحاً أنه استاء من تطفل رجل من المعجبين بكاسي. لكنه لم يجادل ما ترك في جيك تأثيراً حسناً. كان واضحاً أن لرأي إيف وزناً في هذا المنزل أكثر مما تصور.

كان الجو في المكتبة أكثر دفئاً بكل تأكيد. نظر جيك من حوله وتملكه العجب لكم الذكريات في هذه الغرفة، ومدى ألفته لها، وعجزه عن نسيانها. كان هنا عندما أقدم على خطيئة لا تُغتفر بمعانقته إيف. كم كان أحمق مسكيناً وهو يظن أنه كان يرفّه عنها، وأنه بمجرد وضع يديه عليها ستدرك ما الذي افتقدته طوال حياتها. لكنها، وبدلاً من ذلك، داست على رجولته واحترامه لنفسه، ولم يستطع إلا أن يهرب منقذاً كرامته.

- أتريد عصيراً؟

فقال جايك باسماً: «عظيم».

والتفت مصمماً على ألاّ يدع تصرفات هذا الرجل تغضبه: «هل تعيش في هذه القرية يا سيد روبرتسن؟».

قطب آدم حاجبيه الكثين: «لا. لدي مزرعة فوق الوادي. ألم تخبرك كاسي؟».

لم تخبره كاساندرا... كاسي سوى القليل عن أسرتها ما ناسبه تماماً. لكن وبعد أن قدمته إلى أمها، لا بد أنها ذكرت أن لديها أخاً في المنطقة.

سألته إيف، وقد أدركت أن آدم مصمم على أن يصبح كريهاً

فتدخلت لكي تحفظ السلام بينهما: «هل جئت من لندن بسيارتك اليوم؟».

فأجاب جيك: «لا. جئت بالطائرة إلى نيوكاسل، ثم استأجرت سيارة في المطار».

فقال آدم بلهجة غير ودية: «لكي تأتي إلى هنا؟ ما أحلى هذا».

تساءل جيك إن كان هذا الرجل يتمنى الموت. إنه يعاني من صعوبة في التحكم بأعصابه بعد أن رأى إرهاق إيف واضحاً أمام عينيه. ألا يدرك هذا الرجل أنها تبدو وكأنها تحمل عبء مرض السيدة العجوز بأكمله؟ كيف يساعدها باستثناء التصرف كمغفل فظ؟

قالت إيف بسرعة محاولة أن تسبغ المرح على الجوّ: «ستسرّ إيلي جداً برؤيتك. ما زالت تلازم غرفتها منذ مرضها، وسيبهجها أن ترى وجهاً جديداً».

فقال آدم متهكماً ظناً منه أن جيك لا يستطيع أن يثأر لنفسه: «ومثل هذا الوجه الجميل».

هذه المرة، طفح الكيل بالنسبة إلى جيك فسأله متجاهلاً محاولة إيف للوقوف بينهما: «أترى مشكلة في وجودي هنا؟».

وخاطب إيف من دون أن يلتفت إليها: «ابقي بعيدة عن هذا».

فأجاب آدم هادراً: «ليست هذه هي المشكلة».

- ما هي المشكلة إذن؟

كان طبع جيك مخيفاً. وأدركت إيف أن عمها يبخس من شأنه. وتابع جيك قائلاً: «أنّ لا رأي لك في من يدخل أو يخرج، صح؟».

بدا الغضب واضحاً على آدم، وشخر مشيراً إلى إيف: «وهي أيضاً، لأنها لا تملك هذا البيت».

رأى جايك أنّ الكلام لا معنى له فهو يعلم أن هذا البيت ليس ملكاً لإيف بل هي تعمل هنا فقط. وبالرغم من أن كاساندرا قالت إنها قريبة

www.elromancia.com

لهم، إلاّ أنها تعامل وكأنها خادمة وليست فرداً من العائلة.

قالت إيف متذمرة: «إنه يعلم ذلك، يا آدم».

ووضعت في يد جيك كأساً أخرى وكأنها تمنعه من أن يسدد ضربة إلى وجه آدم ثم أردفت: «ما الذي حدث لك؟ السيد روميرو ضيف وليس متطفلاً. وإيلي تحبه سواء أعجبك هذا أم لا».

فشخر آدم بصوته: «إذا كان هذا رأيك».

- نعم، هذا هو رأيي.

وناولته كأساً: «والآن، اشرب شرابك وكفاك تصرفاً كمعتوه».

فقال آدم ساخطاً: «ومن تكونين لتسميني معتوهاً؟».

تملكت جيك الحيرة لرؤيته ابتسامة مكرهة تلوح عند زاويتي فمه. لكنه ألقى على جيك نظرة حاقدة، ثم أضاف بفظاظة: «آسف، ولكن المعجبين بكاسي كانوا يتملقونني، عادة، بطريقة مزعجة».

فوجيء جيك. لم يتوقع قط من هذا الرجل أن يعتذر، وافترض أن يكون شاكراً لإيف إنقاذ الوضع، لكنه لم يشعر بذلك.

لقد أسكتته، لكنه ما زال يشعر برغبة في أن يفرغ شعوره بالإحباط على شخص آخر.

فقال من بين أسنانه: «أظنه وقتاً عصيباً بالنسبة إليكما، أنتما الاثنين. ويبدو أن إيف هي التي تحتمل معظم قسوته».

- جيك!

استعملت ايف إسمه من دون تفكير، وقبل أن يستوعب ذلك، سارع آدم يقول: «لدي مزرعة أديرها يا سيد روميرو، ما لا يدع لي وقتاً لأي شيء آخر».

فقال جيك بحدة: «كان عليك إذن أن تستأجر ممرضة للعناية بأمك. إيف ليست خادمة».

- أعرف هذا.

تكلم آدم بصوت مرتفع، ثم عاد يقول: «على أيّ حال، ما دخلك أنت؟ إيف كبيرة بما يكفي لتشكو بنفسها إذا شاءت».

فقالت إيف: «بالله عليكما هلاّ كفّيتما عن التصرف وكأنني غير موجودة؟ يسعدني جداً أن أعتني بإيلي يا سيد روميرو، وكان آدم ليستأجر ممرضة لو طلبت منه ذلك. لكنه سيأخذها إلى مزرعته مدة أسبوعين لتسترد صحتها، وبهذا يمكنني أنا أن أرتاح».

- أصحيح هذا؟

تنهدت إيف: «ماذا؟ أن إيلي ذاهبة إلى المزرعة لقضاء أسبوعين؟ نعم، هذا صحيح. زوجة آدم كانت ممرضة، وهي قادرة جداً على العناية بها. هل أرضاك هذا؟».

فتنفس الصعداء: «أظن ذلك».

- هذا حسن.

أخذت إيف ترشف كأس الصودا التي سكبتها لنفسها آملة أن تكون كلماتها قد أصلحت الوضع.

كانت حماستها لرؤية جيك مرة أخرى قد انطفأت في الجوّ المتوتر الذي أوجداه هو وآدم، ومع ذلك، بقيت تشعر بالضيق لأنها جعلت مشاعرها تعميها عن الخطر الحقيقي. فهي لا تعرف سبب مجيء جيك، ولا يمكنها سوى أن تأخذ قوله عن أمها بظاهره. لكن مهما قال ومهما أراد منها، فلن تستطيع أن تسمح لجنون مؤقت بأن يتحوّل إلى ما هو أشدّ تدميراً.

قال آدم فجأة: «اسمعي. سأصعد لأودع أمي قبل ذهابي».

والتفت إلى جيك مضيفاً: «لماذا لا تصعد وتراها؟ ربما، كما قالت إيف، سيسرّها أن ترى شخصاً مختلفاً».

تردد جيك لحظة. فبالرغم من أنه كان ينتظر خروج آدم لكي ينفرد بإيف ويتحدثا وحدهما، إلاّ أنه لم يستطع أن يتجاهل غصن الزيتون

www.elromancia.com

الذي مده له الرجل الآخر.

قال بفتور: «شكراً. هذا حسن».

عندما خرجا، تنفست إيف بارتياح. لقد شعرت للحظة بأن جيك سيرفض، فكيف كانت لتشرح سبب رفضه هذا لآدم؟ ورجت أن تدوم هدنتهما هذه بقدر ما تستغرقه زيارتهما لجدتها وتقنعها، هي، أن سبب مجيء جيك الوحيد إلى هنا هو ليطمئن إلى صحة جدتها.

ربما كان هذا صحيحاً. على أيّ حال لم يكن مما يبعث على الغرور أن تعلم أن الأمر الرئيسي الذي لاحظه عليها هو مدى إرهاقها...

لم يكن جيك قد نزل بعد عندما عادت إلى المكتبة. وبما أنها لم تكن ترغب في الجلوس لانتظاره هناك، قررت أن تخرج إلى الإصطبلات. كانت تعلم أن الفرس ستورم آمنة في مربطها لكنها تشعر دوماً بالارتياح في صحبة الفرس، وهي ترجو أن يفهم جيك الإشارة فيغادر البيت قبل عودتها.

كانت الفرس تلتهم طعامها مسرورة. وعندما أراحت إيف ذراعيها الممدودتين على حاجز مربطها، رفعت الفرس بصرها لكنها لم تأت لتحييها.

نظرت خلفها فرأت أكياس قش صغيرة مكوّمة فسحبت اثنين منها وجلست عليهما.

كان النظر إلى الفرس يهدىء أعصابها، فوضعت مرفقيها على ركبتيها ثم أسندت ذقنها على يديها.

لا بد أنها بقيت على هذا الحال لبعض الوقت قبل أن تنتبه إلى أنها لم تعد وحدها. كان جيك مستنداً إلى المربط الخالي المجاور لمربط ستورم، وقد ركز بصره عليها بقلق.

تملكها ضيق بالغ وهي تراه يدخل الإصطبلات من دون أن تسمح وقع خطواته. يبدو أن أفكارها كانت بعيدة أميالاً ما يمكّن أي شخص

من أن يدخل هذا المبنى المنعزل من دون أن تراه.

عندما رفعت بصرها ورأته قال: «مرحباً».

فارتجفت. وعندما همّت بالوقوف، أشار إليها لتعود إلى جلوسها قائلاً: «ابقي مكانك. سآتي أنا إليك. هذا المكان صالح كغيره للحديث».

فتحركت بتردد: «عليّ أن أعود».

- لماذا؟

حقاً لماذا؟ وقالت أول ما خطر ببالها: «أشعر بالبرد. أنا جالسة هنا منذ وقت طويل».

جلس على كيس القش بجانبها وخلع معطفه ولفّ كتفيها بالجزء الرقيق منه. كان لا يزال دافئاً من جسده، ولا يزال يحمل رائحته المميّزة: «كنت أنتظر عودتك».

فارتجفت ولكن ليس بسبب البرد: «كيف عرفت أني هنا؟».

- قالت السيدة بلاكوود إني قد أجدك هنا. أعطتني تعليمات عن كيفية العثور عليك، لكنني لم أخبرها بأنني أعرف الطريق.

فتسارعت أنفاسها: «ظننتك سترحل حالما تتحدث إلى إيلي. بعد تلك المعاملة مع آدم لك، توقعت أن تهرب من هنا بأسرع ما تستطيع».

فتمتم بصوت منخفض أيقظ كل تلك المشاعر الغامضة في داخلها: «هل كنت تتمنين ذلك؟ هل هذا هو السبب الذي جعلك تجلسين هنا؟ لكي تتجنبي رؤيتي مرة أخرى؟».

نعم. لكنها لم تقلها بصوت عال بل قالت: «لا. ما الذي جعلك تظن ذلك؟».

- أنت تعلمين لماذا. كان عليّ أن أعتذر. لم يكن لي الحق في أن أحاول أن أعانقك.

كادت تختنق لفيض المشاعر: «ما كان لي أن أتصرف بتلك

www.elromancia.com

الطريقة. هل آلمتك؟».

طرحت السؤال الأخير وهي تلقي عليه نظرة جانبية، فلوى فمه: «لو أجبت بنعم، فماذا ستفعلين؟ تعانقيني بشكل أفضل؟».

توهج وجهها، وعندما حاولت أن تنهض وضع يده على ركبتها يمنعها من ذلك قائلاً بأسف: «آسف. ما كان لي أن أقول ذلك. هل تسامحينني؟».

شعر بركبتها ترتجف تحت يده، فشتم نفسه لحماقته. لقد سبق وتكهن بأن رجلاً ما، في وقت ما، آذاها فإذا أراد أن يراها مرة أخرى، عليه أن يتوقف عن إزعاجها.

قال وهو يقاوم الرغبة في أن يأخذها بين ذراعيه: «اسمعي. ألا يمكننا أن نضع الماضي خلفنا ونبدأ من جديد؟».

ففتحت فمها: «ليس هناك ما نبدأه من جديد، يا سيد روميرو!».

وشعر برغبة في أن يغرق في جمال عينيها الشفافتين بينما تابعت هي تقول: «أظنك خلطت بيني وبين كاساندرا».

- لا، لم أفعل هذا. لم أفكر في سواك منذ رحلت من هنا.

فتوترت: «أنت تمزح. أليس كذلك؟».

- هذه هي الحقيقة.

فقالت مشككة: «حسناً. يُفترض بي إذن أن أصدق أنك طوال الوقت الذي كنت فيه مع كاساندرا، كنت في الواقع تفكر بي. كم هذا مقزز!».

فقال بحدة، كارهاً تهكمها: «لم أكن مع كاساندرا. أي نوع من الحيوانات تظنينني؟».

- ليس لدي فكرة، يا سيد روميرو. فأنا أكاد لا أعرفك.

فقال وقد أزعجه ألاّ تستعمل اسمه: «يمكننا أن نعالج هذا الأمر، وهذا ما أريده».

ورغم نيته التحرك ببطء، سمح لأصابعه بأن تمرّ على ذراعها فانتفض عصب تحت يده وشعر على الفور برجفة خوف تتملكها لكنها قالت تجيبه: «حسناً، أنا لا أريد».

كان لسانها جافاً، فأدركت أن ما قالته ليست الحقيقة تماماً. كان قربه منها يؤثر في حواسها بشكل لم تعرفه من قبل. ورغم أنها أرادت أن تزيح يده، إلا أن الفضول وإغراء لم يمكنها إنكاره، منعاها من ذلك.

- لا تريدين؟

ازداد اقتراباً منها وهو يتابع: «هل أنت واثقة من ذلك؟».

- جيك!

كان اسمه صيحة احتجاج، ولكن عندما أدارت رأسها وجدت وجهه على بعد إنشات فقط من وجهها.

وتحرك شيء في أعماقها... شيء جعلها تستمر في التحديق فيه رغم علمها أنه لا ينبغي أن تفعل هذا، وأنه لا ينبغي أن تقترب بهذ الشكل من أي رجل، وخصوصاً هذا الرجل.

كانت عيناه داكنتين، فيما ظل أسود من لحيته النامية يغطي فكه. رأت وجهه رائع الجمال، جمال خشن وصلب. عيناه عميقتان، وفمه رقيق لكنه مثير بشكل كفيل بأن يفتن أي امرأة.

تملكتها رجفة خفيفة لا بد أنه لاحظها لأنه رفع يده ولامس خدها بخفة.

وأصبحت الرجفة زلزالاً، فشعرت إيف بمقاومتها تتلاشى وأصبح تنفسها سطحياً، فيما وصل صوت خفقات قلبها إلى أذنيها. وتسمّرت مكانها، لكن كيف يمكنها هذا بينما تشعر في داخلها ببراكين تتفجر.

أرادت أن تلمسه، فارتفعت يداها لتتشبثا بكنزته وكأنها بهذا تتحكم في هذا الجنون بداخلها.

www.elromancia.com

قال بصوت أبحّ غير ثابت: «يا إلهي، كم أريدك».

فلم تستطع إلا أن ترفع بصرها إليه مأخوذة.

كان عناقه مختلفاً أيضاً وقوياً، وكأنه يخاف أن تهرب منه. لكنها لم تهرب. لم تستطع ذلك... لقد أحرقت نار قربه كل مقاومة لديها، مشعلة كيانها كله.

لم تشعر بأن الفرس أنهت طعامها ووقفت تنظر إليهما بعينين رقيقتين. كانت لا تشعر بسوى جيك ومشاعره... وحرارته...

عانقها حتى شعرت بالإنهاك فتشبثت به.

- هل لديك فكرة كم تمنيت أن أفعل هذا؟ علمت أنك ستكونين جميلة للغاية وأنت كذلك.

- أنا... لست... جميلة.

شعرت بنفسها حية مرغوبة رغم كلماتها هذه، فأمسكت بوجهه بين يديها تتأمله بشغف واضح.

- آه يا طفلتي. أتمنى لو نبقى هنا معاً الليل بطوله، فلا يقاطعنا أحد.

وأخذت هي تتأمل، مفكرة... لا أحد .... لا أحد ولا حتى كاسي. كاسي... واقشعرّ جسدها وهي تتذكر من هو جيك، وكيف عرفته. يا إلهي، ما الذي كانت تفكر فيه حين سمحت لهذا أن يحدث؟ هل جُنت بحيث تكاد تستسلم لرجل يعترف بأنه ما زال يعرف امرأة أخرى؟ رجل محرم عليها؟

كان قد أحنى رأسه ليعانقها مجدداً عندما صدر عن إيف استنكار مختنق، وصرخت بذعر شديد: «كلا... كلا، لا يمكنك ذلك. أنت لا تفهم».

وابتعدت عنه بسرعة ثم واجهته بعينين واسعتين معذبتين: «لا يمكننا أن نفعل هذا. لا يمكنني أن أفعل هذا. إنه ليس صواباً».

حدّق جيك فيها. وبالرغم من الإحباط الذي يكسو ملامحه، إلاّ أن صوته كان هادئاً بشكل غير طبيعي وهو يقول: «بسبب كاساندرا، أليس كذلك؟ لأن كاساندرا عرّفتنا ببعضنا البعض...».

- كلا، كلا... ليس هذا هو السبب.

لكن لصبر جيك حدوداً: «ماذا إذن؟ أخبرتك أن كاساندرا لا تهمني، أليس كذلك؟ أعرف أنها من أقربائك، لكننا لا نستطيع أن نمنع ذلك. ستنسى».

- لا، لا... لن تنسى.

كان الذعر قد تعاظم في صوتها الآن. وأدرك جيك أن ثمة ما هو أكثر من مجرد قلق بسيط فسألها: «ماذا إذن؟ لماذا علينا أن نهتم بما تفكر فيه؟ إنها ليست القيّمة عليك، أليس كذلك؟».

فقالت إيف وصدرها يعلو ويهبط تأثراً: «إنها أمي. والآن هل رأيت لما لا أستطيع أن أكون معك. إنها... أمي!».

www.elromancia.com

١٠ - لا أريدك في حياتي!

قاد جيك سيارته عائداً إلى لندن بمزاج سيء للغاية. غادر من دون أن يرى إيف مرة أخرى. عاد خلال الليل ليصل إلى فندقه في ساعات الصباح الباكر.

كان يعلم أنه سيضطر لأن يدفع غرامة ما لإحضارة سيارة مستأجرة إلى لندن، لكن المال لا يهمه كثيراً. كان غاضباً. لم يستطع أن يصدق أنه كان من الجنون بحيث وقع في غرام ابنة كاساندرا. يا إلهي... ابنة كاساندرا! لا عجب في أنهما لا يحبان بعضهما.

وتذكر الحديث الذي دار بينه وبين السيدة العجوز قبل رحيله. أي نوع من الوحوش كان يعاشر؟ أي نوع من النساء تلك التي تتخلى عن ابنتها حتى بدون أن تخبر أمها بأنه أصبح لديها طفلة؟

لقد اطلع على القصة من السيدة العجوز، لأن إيف لم تخبره بشيء. فبعد أن ألقت قنبلتها لم تبق لتجيب عن أي سؤال. ورغم قوله لها إنها لا تستطيع أن تطلعه على أمر كهذا من دون أيّ إيضاح إلاّ أنها رفضت أن تقدم أي تبرير لتصرفها هذا أو لعدم إخباره أنها ابنة كاساندرا قبل الآن... كم كان أحمق! ولكن، بدا واضحاً أن كاساندرا لم تعترف بابنتها قط. ولسبب ما، لم تمانع إيف بل جعلته يعتقد أنها مرافقة السيدة روبرتسن فقط.

السيدة روبرتسن! وصرف بأسنانه. المرأة التي تناديها إيف إيلي هي جدتها! فكرة من كانت إخفاء علاقتهما؟ ليست فكرة السيدة العجوز

بكل تأكيد التي لولا تدخلها لكانت إيف...

لم يشأ التفكير في ذلك حالياً... لكن حالما ينبلج الصباح سيذهب ليرى كاساندرا ويسمع منها القصة. لن يدع هذا الأمر يمر من دون أن يسمع الحقيقة منها.

هزأت منه الكلمات التي استعملها. كيف سيدع الأمر يمرّ مهما قالت كاساندرا؟ شعوره نحو إيف لن يتلاشى بهذه السهولة، هذا إذا تلاشى. ومهما كان عدد المرات التي ذكّر فيها نفسه بأنها خدعته كما خدعته أمها، فهو لم يستطع أن ينبذها من ذهنه.

إنه يريدها، لا بل أكثر من ذلك. فهو يريد أن يكون معها. أن يأخذها بين ذراعيه كما كانا منذ ساعات... في الإسطبل... وعادت ذكرى تخلّيها عنه بازدراء تمزقه إرباً إرباً.

ومع ذلك، عليه ألاّ ينسى أنها ابنة كاساندرا. وكيف يمكن لابنة تلك المرأة أن تكون غير مزعجة؟ لو كان لديه عقل، لحمد الله على أنه علم ذلك في الوقت المناسب.

شعر بالمرارة والإحباط وبأنه متلهّف لجعل شخص آخر يتألم كما يتألم هو الآن. كان هذا جديداً عليه، وهو لا ينوي أن يدعه يحدث له مرة أخرى.

كان الوقت يقارب الثالثة صباحاً. ورغم التوتر الذي تملكه والذي ساعده على القيادة مسافة ثلاثمئة ميل من دون توقف، إلاّ أنه شعر بالإرهاق. وتذكر أنه لم يكد ينام ليلة البارحة.

إنه بحاجة لأن يرتاح، لأن يخلع ثيابه ويندس في سريره حتى من دون أن يستحم. إنه لا يريد ما ينعشه. لا يريد ما يشغل ذهنه مرة أخرى. لكن حتى عندما أغمض عينيه، لم يستطع أن ينام.

وجه إيف كما رآه آخر مرة حال بينه وبين السعادة القصوى التي كان يبحث عنها. رائحتها الأنثوية ما زالت على يديه وما زال يشعر بيديها

www.elromancia.com

ممدودتين إليه بلهفة.

وتأوه وهو ينقلب ليدفن وجهه في الوسادة. مهما كانت معاملتها له، فهو ما زال يريدها.

وأخيراً غلبه النعاس، وعندما فتح عينيه مرة أخرى كان الوقت نهاراً.

طلب قهوة وخبزاً محمصاً من خدمة الغرف، ثم استحم.

بعد الفطور شعر بشيء من التحسن، فارتدى ملابسه ونزل إلى الطابق السفلي حيث تدبّر أمر إرسال سيارته المستأجرة إلى حيث تريد شركة التأجير ثم غادر الفندق.

كان الوقت قد تجاوز التاسعة بقليل، توقع أن تكون كاساندرا في الاستديو. لكن، وبعد أن اتصل بها في شقتها وتأكد من أنها لا تزال فيها، استقل سيارة أجرة وتوجه إليها.

لم يتحدث إليها بل وضع السماعة حالما سمع صوتها. أراد أن يرى وجهها عندما يواجهها بنفاقها وخداعها. أراد أن يكون موجوداً عندما تحاول أن تشرح له لما باعت ابنتها لغرباء حال ولادتها.

كانت كاساندرا تعيش في نوتينهيل، وتشغل نصف الطابق العلوي من مبنى من العهد الفيكتوري. ورغم أن جيك لم يدخل بيتها قط، إلاّ أنه أوصلها إليه مرتين، ما جعله يعرف مكانه.

اكتشف رقم شقتها من صناديق البريد في الردهة، فصعد إلى الطابق الثاني بسرعة، راجياً ألاّ تكون قد خرجت. كانت زحمة السير في لندن خانقة دوماً، وفي أي وقت.

فتحت له كاساندرا الباب. بدا أنها تركت الفراش لتوّها. كان يعلم أن ملامحه توحي بأن هذه ليست زيارة اجتماعية، لكنه دهش عندما ألقت إلى الخلف نظرة مثقلة بالذنب قبل أن تهتف بصوت منخفض: «جيك. ما الذي جاء بك؟».

إنها الكلمات نفسها تقريباً التي قابلته بها ابنتها أمس. حسناً، إنه يستحق ذلك لعدم إبلاغها قبل مجيئه، خصوصاً أنها ليست وحدها على ما يبدو. وقال بفتور: «علينا أن نتحدث. أيمكنني أن أدخل؟».

نظرت مرة أخرى من فوق كتفها متوترة، ثم قالت له: «لا يمكننا أن نتحدث الآن يا حبيبي، فأنا لم آوِ إلى السرير قبل الثانية صباحاً. كان لدينا حفلة في الاستديو، و...».

- لا يهمني أين كنت ومع من كنت.

ثم دفع الباب ففتحه: «سنتحدث يا كاساندرا، أم هل أقول كاسي؟ بهذا الاسم تناديك ابنتك، أليس كذلك؟».

فتحت كاساندرا فاها. ومضت لحظة لم تحاول فيها أن تمنعه من دخول الشقة، ثم ما لبثت أن استعادت وعيها فحاولت، من دون جدوى، أن تمنعه. قالت: «لا يمكنك أن تدخل إلى هنا الآن. أنا... أنا لست وحدي».

- وهل يبدو عليّ الاهتمام؟

ومدّ يده يزيحها جانباً وهو ينظر من حوله إلى ما يبدو أنها الغرفة الرئيسية في الشقة. كانت صاحبتها كاساندرا، بالغة الفوضى حيث تناثرت الملابس والمجلات على الأرض.

- ليس لديك الحق في أن تدخل عنوة.

وانحنت لتلتقط ما بدا أنه قميص رجل ثم دسّته خلف الوسادة على الأريكة: «هذا ليس مزاحاً، يا جيك. أنا لا أقتحم جناحك في الفندق من دون دعوة. وعليك أن تفعل الشيء نفسه».

فأجاب بعدم اهتمام: «لقد دُعيت إلى هنا مرات عديدة. فلنتظاهر بأنني لبّيت الدعوة».

فقالت وهي تلقي نظرة أخرى متوترة إلى ما يبدو أنه باب غرفة النوم: «لن نتظاهر بشيء. أنا لا أريدك هنا».

قال وهو يلقي بنفسه على الأريكة ويشبك يديه خلف رأسه: «يا لسوء الحظ، لأنني هنا الآن. يا لها من أريكة مريحة!».

فهمست بصوت كالفحيح: «ماذا تريد يا جيك؟».

- هذا أحسن، لِمَ لا تجلسين فأخبرك؟

تنفست بعمق: «لا أريد أن أجلس، عليّ أن أكون في الاستديو خلال ساعة».

وألقت نظرة أخرى على باب غرفة النوم.

نظر إليها من تحت أهدابه: «هذا وقت كافٍ. وهكذا، أخبريني عن ابنتك».

فابتلعت ريقها: «ليس لي ابنة».

- كاذبة!

عبست: «لا أدري من أين جئت بهذه القصة غير المعقولة، ولكن...».

- اسألي ابنتك.

- هل أخبرتك إيف؟

بدت القسوة على ملامحه: «هل قلت لك إنّ اسمها إيف؟».

سألته وهي تتجنب نظراته: «ومن غيرها يخبرك بقصة سخيفة كهذه؟».

- وماذا بالنسبة إلى أمك؟

عندئذ، التفتت إليه: «أمي؟ آه يا جيك. أنت تعرف ما تظنه تلك الكلبة بي. كيف تصدق ما تقوله؟».

نظر إليها بحدة: «هذا غير صحيح إذن؟».

فقالت وعيناها تنظران إلى خلفه: «لا، كلا هذا غير صحيح طبعاً. يا للسماء. عمر إيف... ماذا؟ خمس وعشرون؟ لا بدّ أني كنت مراهقة عندما ولدتها».

- أمك تقول إنك في السادسة والأربعين. وهذا يكفي ليكون لديك ابنة في الخامسة والعشرين.

فشهقت كاساندرا: «أنا لست في السادسة والأربعين».

- لا؟

- لا.

اعتدل جيك في جلسته وقال: «شهادة الميلاد التي أرتني إياها أمك مزورة إذن؟».

حدّقت كاساندرا فيه: «أي شهادة ميلاد؟ كيف أمكنك أن ترى شهادة ميلاد؟ هل كنت في بيتنا من دون أن تخبرني؟».

- لم أكن أعلم أنني بحاجة إلى إذن منك لكي أزور سيدة مريضة.

ووقف وسأل: «هل هي مزورة إذن؟».

ترددت: «شهادة ميلاد من... رأيت؟».

هزّ رأسه: «حسناً، ليست شهادة ميلادك. لكن ربما يمكنك أن تفسري لي... كيف أن فتاة في الثالثة عشرة مثلك يمكنها أن تدّعي أنها في العشرين وتعيش وتعمل في لندن عند ولادة إيف».

هبطت كتفا كاساندرا: «لا أرى أن هذا الأمر يعنيك. أظن أنه من الأفضل أن تذهب».

نظر إليها بقسوة: «أريد أن أسمع القصة من فمك. أريد أن أعلم كيف استطعت أن تهجري طفلتك وتتركيها تحت رعاية أناس لا تعرفين عنهم شيئاً».

قالت تدافع عن نفسها بعد أن أدركت أن لا فائدة من الإنكار: «أنا لم أهجرها. كان آل فولتين طيبين معي للغاية. ولولاهم لكنت في الشارع».

فقال بخشونة: «لكنك لم تكوني تعرفينهم... ليس تماماً. لقد تعرفت إليهم في مكان عام».

www.elromancia.com

أخذت تبحث عن الكلمات، ثم قالت: «نعم، حسناً... كان بإمكاني أن أجهض كما تعلم».

- لكنهم أقنعوك بألاّ تفعلي.

- كنت متكدرة فقالوا إنهم سيساعدونني.

فقال باحتقار واضح: «أين كان والد الطفلة؟».

- لم يشأ أن يتحمّل أيّ مسؤولية طبعاً.

- حسب التحريات التي أجرتها أمك عندما علمت أنها جدة لطفلة، أخبرت مكتب تسجيل الولادات أنك لا تعلمين من هو والد الطفلة.

احمر وجه كاساندرا: «وماذا بإمكاني أن أفعل غير ذلك؟ كان عليّ أن أقول شيئاً».

- لماذا لم تخبري أمك أنك حامل؟

فحدقت فيه: «أنت تمزح. أيمكنك أن تتصور ما كان ليحدث؟».

- قالت إنها كانت لتسرّ جداً لو عدت إلى البيت وولدت الطفلة.

فقالت بازدراء: «حقاً. لقد أمضيت نصف عمري وأنا أرغب في أن أغادر القرية. أتظن أنني كنت سأتخلى عن كل شيء عملت لأجله طوال السنوات الأربع السابقة لكي أعود إلى هناك بعد أن كنت من الغباء بحيث تركت نفسي أحمل؟ لا. شكراً».

- حتى أنك لم تخبري أمك عن الطفلة!

- لا. كانت لتصر على أن أحتفظ بها.

- وهل كان هذا سيئاً للغاية؟

- هل تمزح يا جيك؟ منذ خمسة وعشرين عاماً، كانت الأم غير المتزوجة تعاني من صعوبات اجتماعياً ومادياً.

- وهكذا بعت طفلتك.

- أنا... أنا لم أبعها بالضبط.

- لا؟ ماذا تسمين ذلك؟

- بعد أن ولدت إيف جاء آل فولتن إلى حيث كنت أعيش واقترحوا أن يعتنوا بها. كان الزوجان يحاولان منذ سنوات أن ينجبا طفلاً، لكن هذا لم يحدث. قالا إنهما سيوفران لها بيتاً حسناً و... ويمنحاني مبلغاً من المال إذا ما وافقت على أن أسمح لهما بأخذها.

- وهكذا بعتها.

- نعم، إذا كنت تصر على هذا التعبير. أنا بعتها.

- إلى شخص حاول أن يعتدي عليها عندما أصبحت في الثانية عشرة.

فشخرت: «ليس لدينا سوى كلام إيف في هذا الصدد».

- لقد هربت ثلاث مرات. هي أخبرتني بذلك.

فأشاحت بوجهها: «كثير من الأولاد يهربون من بيوتهم».

- لا بد أن السلطات صدّقتها أخيراً فوضعتها تحت الرعاية، أليس كذلك؟

- كانت غير منضبطة.

تمنى لو يضربها لكنه تحكم في نفسه: «مهما يكن... لقد أمضت السنوات الثلاث التالية في الشؤون الاجتماعية».

فقالت بحقد: «حتى هربت مرة أخرى مع غلام تميل إليه. وعندما وجدتهما أمي كانا يعيشان في حظيرة أغنام في إيزلنغتون».

- هذا ما قالته أمك. يهمني أن أعرف كيف علمت أن لديها حفيدة.

- ألم تخبرك بذلك أيضاً؟

- بلى أخبرتني. أريد فقط أن أسمع كيف أعلمتها بذلك. فهمت أنك لم تكرهي العودة إلى البيت بعد أن شعرت بأنك ستموتين بمرض مهلك.

- هذه قسوة منك. كنت بحاجة إلى عون.

ألقت نظرة توجس أخرى نحو باب غرفة النوم وكأنها تخاف أن يعلم

www.elromancia.com

زائرها أنها أصيبت ذات يوم بمرض في الكلية.

قال بازدراء: «نعم. كنت بحاجة إلى عون، بحاجة إلى تغيير مكانك. وبما أنك خشيت ألاّ تكون كلية أمك مناسبة أخبرتها أنك أنجبت طفلة ذات يوم، لكنك لا تعرفين أين أصبحت، أليس كذلك؟».

- لماذا تسألني بينما يبدو أنك تعرف الأجوبة كلها؟

شعر جيك بالغثيان إذ لم يسمع نبرة ندم في صوتها وقال: «نعم. لكن كلية أمك كانت سليمة، أليس كذلك؟ لا بد أن الغيظ تملكك عندما أدركت أن اعترافك كان من دون فائدة. لا أدري كيف تعيشين مع نفسك».

فتوترت شفتاها: «حسناً! ما الذي ستفعله في هذا المجال؟».

- ما الذي سأفعله؟

بدا التردد على وجهها: «لن تخبر أحداً، أليس كذلك؟».

- أحداً آخر؟ ومن يهتم بذلك؟

هزّت كتفيها وهي لا تزال تنظر بعيداً: «لا أحد كما أظن».

- فهمت. أنت خائفة من أن أعطي هذه المعلومات للصحافة، أليس كذلك؟ حسناً، لا تخافي يا كاساندرا. لن أخبر أحداً بسرّك الصغير القذر. أنت لست الشخص الوحيد المعني هنا.

حدّقت فيه ثم قالت هازئة: «طبعاً. كان عليّ أن أعلم. ليس القلق على أمي هو ما جعلك تذهب إلى هناك. بل إيف، ابنتي القديسة. يا إلهي. أنت لست أفضل مني».

وضحكت بخشونة فقال: «بل أنا كذلك. صدقيني».

لم يعد جيك يستطيع التحكم في غضبه الآن، فابتعدت عنه بسرعة، بينما قال هو مكشراً: «بالنسبة إلى إيف، أنت أمها. وهذا يجعل أي علاقة بيننا محرمة. ولكن أتعلمين؟ لا بأس في ذلك. أنا لا أريد امرأة أخرى مثلكِ في حياتي».

١١ - عالم جديد

حطّت الطائرة في سان فيليب عند العصر بعد أن استغرقت رحلتها ساعات وساعات. وإيف، التي لم تضبط ساعتها بعد على توقيت سان فيليب، رأت أنها أصبحت التاسعة في لندن. لكنها لم تكن متعبة، بل متحمسة للغاية. متحمسة ومتوجّسة أيضاً، فهذه خطوة كبيرة. ومع أن جدتها أخذت تحثها على الإقدام عليها، إلاّ أنها لم تستطع أن تمنع شعوراً بالضيق لأن جيك لن يكون مسروراً حقاً برؤيتها.

أمور كثيرة حدثت في وقت قصير، وهي لا تزال مصعوقة من تصميم جدتها على بيع البيت. لكن السيدة المسنة رأت أنها لا تريد أن تبقى في هذا البيت من دون مرافق سوى مديرة المنزل عندما تكون إيف في عملها. وبما أنّ إيف ستضطر لأن تنتقل إلى نيوكاسل للعمل، فقد قررت إيلي أن تقبل دعوة ابنها آدم للعيش معهم.

مديرة المنزل السيدة بلاكوود لم تمانع، فقد كبرت في السن هي الأخرى وتفكر في التقاعد. إيف وحدها كانت المشكلة. ورغم أن آدم عرض عليها أن تعيش معهم هي أيضاً، إلاّ أنها قررت أن يكون لها بيتها الخاص. وحصل هذا عندما وصلتها رسالة السلطات التعليمية في سان فيليب، تفيد بأنهم يحتاجون معلمة لمدرسة صغيرة في الجزيرة، وسيسعدهم أن يقدموا هذه الوظيفة إلى إيف. ستخضع للاختبار مدة شهرين، على أن تُمنح إيف تذكرة عودة إلى إنكلترا إذا لم تجر الأمور على ما يرام.

www.elromancia.com

وأدركت على الفور أن جيك يقف وراء هذا العرض. أما ما لم تفهمه فهو ما الذي دفعه إلى عمله كهذا؟ لقد تركها عندما اكتشف أن كاسي أمها، ولم تدهش حين لم يتصل بها منذ ذلك الحين.

وراحت جدتها تحثها على قبول هذه الوظيفة، قائلة: «ماذا ستخسرين؟ مجرد أنه كان من الحماقة بحيث تورط مع كاسي لا يجعله رجلاً سيئاً. لقد مال إليك بشكل واضح. وعندما أخبرته أنك ستفقدين وظيفتك في عيد الفصح، تساءل عما إذا كنت تحبين أن تغيري وتكتشفي عالماً جديداً».

- متى أخبرته أنني سأفقد وظيفتي في عيد الفصح؟

بدا على جدتها الغموض: «وهل هذا مهم؟ إنها فرصة رائعة يا إيف، وأنت تستحقينها. وإذا لم تعجبك الإقامة هناك يمكنك العودة في أي وقت إلى الوطن».

وهذا صحيح، كما أخذت إيف تفكر الآن. كانت الشكوك قد تملكتها منذ ردت بالقبول على هذا العرض، إذ خافت ألاّ يجرُ عليها هذا الأمر سوى التعاسة في الأشهر القادمة.

وكان من الطبيعي ألاّ توافق كاسي على هذه الفكرة. فعندما اتصلت إيلي بابنتها لتخبرها عن وجهة إيف. بذلت جهدها لتذكّرها، عبر جدتها، بأن جيك لا يمكن الوثوق به وأعلمتها أنه زارها مرة أخرى قبل أن يسافر إلى سان فيليب، ما ترك لدى إيف إنطباعاً بأن علاقتهما مستمرة.

لم تخبر إيف أحداً بما جرى بينها وبين جيك في الإسطبل يوم جاء لزيارة جدتها. في الواقع، مرت عليها أوقات تساءلت فيها عما إذا كان كل ذلك مجرد تخيّلات منها. لكنها كانت تستيقظ في الصباح وهي تحتضن الوسادة المبللة بالدموع، عالمة بأن التخيّلات لا يمكن أن تتسبب بمثل هذا اليأس والألم.

تساءلت إن كانت جدتها ستشجعها على السفر إلى سان فيليب لو علمت بما حدث بينهما... وبشعورها نحو جيك. وتملك إيف الشك. فبالنسبة إلى السيدة العجوز، كان هذا حلاً غير متوقع لكل مشاكلهم. ولم تشأ إيف أن تخبر جدتها بشعورها الحقيقي لئلا تقلقها.

أخذت إيف تتساءل عن ماهية شعورها الحقيقي عندما اتضح شكل جزيرة سان فيليب تحتهم. ألا تتطلع بشوق لرؤية جيك مرة أخرى في حياته؟ وحتى وإن كانت العلاقة بينهما مستحيلة إلاّ أنها ما زالت تريد أن تراه، على الأقل لكي تريه أنها لا تشبه أمها أبداً.

راحت الطائرة تحلق فوق سطوح بيضاء ونبات داكن الخضرة، وشواطىء بيضاء رملية ومياه عميقة الزرقة. لم ترَ مطاراً حقيقياً بل مجموعة مبانٍ محاطة بسور من المعدن تضم حظيرة طائرات ومدرج قصير.

توقفت الطائرة وفُتح الباب ووضع السلم ليهبط عليه المسافرون الذي انضمت إليهم إيف وصدمتها الحرارة وهي تنزل على الإسفلت الحار.

أخذت عيناها تبحثان بين مجموعة الناس المنتظرين عند البوابة، لكنها لم تلاحظ شخصاً تعرفه. فرفعت كيسها واندفعت إلى قاعة الجمرك.

وبعد ثوانٍ، وفيما وقفت تنتظر أمتعتها، لامست ذراعها العارية يد وسمعت صوتاً رقيقاً جذاباً يقول: «لا بد أنك الآنسة روبرتسن».

التفتت لتجد امرأة شابة سمراء البشرة رشيقة الجسم تقف بجانبها.

- أنا... نعم، مرحباً.

ووضعت كيسها الثقيل على الأرض بارتياح.

فردت المرأة بابتسامة ومودة حارة: «مرحباً. طلب مني جيك أن أستقبلك. أنا إيزابيل رودريغس!».

- الآنسة رودريغس!

فوجئت إيف. لقد علمت من الرسالة التي تلقتها من السلطات التعليمية في سان فيليب أن مديرة المدرسة تدعى رودريغس، لكنها لم تتوقع أبداً أن تكون شابة هكذا. وعاودتها صورة السيدة بورتمان... امرأة في منتصف العمر، بدينة الجسم، شائبة الشعر وتضع نظارات. كانت إيزابيل رودريغس رائعة الجمال. ولم تستطع إيف أن تمنع نفسها من التساؤل عن مدى معرفتها بجيك روميرو.

- لطف منك أن تحضري لاستقبالي.

فقالت إيزابيل بصوت موسيقي: «لا بأس. هل كانت رحلتك مريحة؟».

- كانت رحلة طويلة لكنها مريحة وممتعة. لم أقم قط من قبل برحلة طويلة كهذه.

- أنت إذن لم تأت إلى هذه الجزيرة من قبل؟

- لا. لم أكن محظوظة إلى هذا الحد.

ولم تقل أن معظم المدرّسين لا يملكون المال الكافي لقضاء إجازة في جزر البحر الكاريبي.

أومأت إيزابيل: «حسناً، أنا واثقة من أنك ستعتادين الحياة هنا. قد تكون الحرارة مشكلة، لكننا نبدأ الدراسة في الصباح الباكر وننهيها عند موعد الغداء ظهراً. وبالتالي، لن يُطلب منك العمل في أوقات النهار التي تشتد فيها الحرارة».

- هذا حسن.

وصمتت ثم أردفت: «إنه يوهن بعض الشيء، أليس كذلك؟».

- ليس بالنسبة إليّ. كم حقيبة لديك؟

أجابت بأسف: «واحدة فقط».

وتكهنت بأن إيزابيل رودريغس لا يمكن أبداً أن تسافر بحقيبة

واحدة. كان ثوبها المنسدل على قوامها النحيف بسيطاً للغاية، لكنه مصنوع من الحرير وألوانه تتناسب مع سمرتها وشعرها الأسود. وشعرت إيف أنها في غير مكانها بسروالها الجينز وقميصها المقفل. حتى شعرها أزعجها، ففكّرت لأول مرة منذ سنوات، في قصه.

وبعد دقائق، وصلوا إلى حيث سيارات الأجرة تنتظر خارج المبنى. لكن إيزابيل قادتها إلى حيث وقفت سيارة مكشوفة تنتظرهما، وقالت بزهو واضح: «لقد وصلنا».

وأعجبت السيارة الحمراء الفارهة إيف.

جلست إيزابيل خلف عجلة القيادة وإيف بجانبها، ثم انطلقتا. وكانت إيزابيل تقود بسرعة فيقع النسيم الآتي من المحيط بارداً منعشاً لذيذاً على وجهها، فاسترخت تستمتع بالمناظر الخلابة للشواطىء المهجورة التي تلامس المياه الخضراء المتوجة بالزبد. كانت الأعشاب الخضراء والأزهار ذات الألوان المذهلة تنتشر في كل مكان ما جعل إيف تنسى هواجسها في غمرة سرورها بوجودها هنا.

قالت إيزابيل وهما تمران بقرية صغيرة لصيد السمك: «الجزيرة ليست كبيرة. وأسرة روميرو لم تسمح بأن تصبح تجارية أكثر مما ينبغي».

أسرة روميرو! وتساءلت إيف عما إذا كان هناك جزء من الجزيرة لا يعتمد على موافقة أسرة روميرو لكي تنتعش. إنها تشك في ذلك. ماذا قالت كاسي؟ إن أسرة روميرو تملك الجزيرة؟ نعم. وتساءلت مرة أخرى عما إذا كانت حمقاء في قدومها إلى هنا.

- فهمت أن المدرسة التي اعتدت التدريس فيها أقفلت أبوابها.

قالت إيزابيل هذا فجأة ما جعل إيف تتساءل عما يمكن أن يكون قد قيل بشأنها. وقالت: «ستقفل خلال أسبوع».

وشعرت فجأة بحنين إلى الوطن وإلى جدتها وبيتها، وإلى الذين

www.elromancia.com

تعرفهم هناك.

- هل عدد التلامذة كبير في مدرستك، يا آنسة رودريغس؟

ضحكت إيزابيل: «مدرستي؟ إنها ليست مدرستي، يا آنسة روبرتسن. أمي هي المديرة وليس أنا».

فتملك إيف الأرتباك: «آسفة. لم...».

- ظننت ذلك لأن اسمي رودريغس. لا، أمي هي مديرة مدرسة سانت فيليب الإبتدائية، كما أسلفت. وأرجوك، ادعيني إيزابيل. وأنت يا آنسة روبرتسن...

- اسمي إيف. أنت لست معلّمة إذن، يا إيزابيل؟

- يا إلهي، كلا. أنا أعمل لدى جيك، يمكنك أن تقولي إني مساعدته الشخصية.

أومأت إيف غير قادرة على رؤية أيّ ناحية إيجابية في هذا الخبر. كان عليها أن تعلم أن رجلاً مثل جيك روميرو سيحيط نفسه بنساء رائعات الجمال. مثل أمها..

اقتربتا من ضواحي ما يبدو مدينة صغيرة فخففت إيزابيل السرعة وهي تقول مشيرة إلى صفوف من المنازل ومركز للتسوّق: «هذه هي سان فيليب. هنا حيث يعيش معظم الناس لكن المدرسة تبعد عن المدينة حوالى نصف ميل. إنها أقرب إلى القسم المخصص للسياح في الجزيرة».

سألتها مدهوشة لرؤية هذه الأمكنة المتطورة: «هل من فنادق؟».

- ثمة فنادق صغيرة. لكن الناس الذين يأتون إلى هنا معظمهم من صيادي السمك والغواصين وأمثالهم.

وضعت إيف ضفيرتها على كتفها لكي تبرد رقبتها راجية الوصول قريباً، فقد تملكها الإرهاق. كما أنها لم تنم جيداً منذ قبلت هذه الوظيفة.

بعد ضاحية المدينة الصغيرة، انعطفت إيزابيل إلى طريق ضيق يتجه نحو البحر. كان طريقاً ساحلياً تحفّ به الكثبان حيث تتناثر الأزهار البرية. ورأت من بعيد بيوتاً بيضاء بسطوح من قرميد مجتمعة قرب رصيف خشبي.

قالت إيزابيل وهي تلوح بيدها لأولاد توقفوا عن اللعب لينظروا إليهما: «ها قد وصلنا. المدرسة قريبة من هنا. وبيتك أبعد بقليل».

فأجفلت إيف: «بيتي. هل لي بيت؟».

- قال جيك إنك ستفضلين ذلك. المعلمة السابقة كانت تسكن معنا، أنا وأمي.

ولاحظت إيف بعض الاستياء في صوت الفتاة فلم تعرف ماذا تقول: «فهمت. هذا يبدو رائعاً. لم يكن لي بيت مستقل قط من قبل».

- أحقاً؟

بدا صوت إيزابيل أقل استياءً وهي تنظر إليها: «حسناً. إنه صغير جداً. مجرد غرفة جلوس ومطبخ صغير، وغرفة نوم وحمام، ككل بيوت سان فيليب. بسيط وعملي».

- هذا ما أحتاجه بالضبط.

وتساءلت عما إذا كان جيك طموحاً نوعاً ما بالنيابة عنها. ما الذي تعرفه حقاً عن العناية بنفسها؟ وكيف ستتمكن من الحصول على مؤنتها؟

وبعد أقل من ساعة، كانت قد وجدت جواباً لمعظم أسئلتها. أخذتها إيزابيل أولاً لتعرّفها بأمها، مديرة المدرسة. وسرعان ما أدركت إيف أن بيت رودريغس فسيح.

لم تكن السيدة رودريغس تختلف عن السيدة بورتمان. بدت متلهفة لتجعل إيف تشعر وكأنها في بيتها، فاقترحت عليها أن تأخذ يومي عطلة للتأقلم مع الجزيرة، ودعتها لتناول العشاء معها ومع إيزابيل في المساء التالي. وتابعت تقول: «ستجدين ثلاجتك ممتلئة، وماء الشرب في

www.elromancia.com

الصنابير. تحن في سان فيليب محظوظون، لأن الماء لدينا كثير وصالح للشرب».

واكتشفت إيف أيضاً أن ثمة عربة مكشوفة بحصان واحد تحت تصرفها. وقالت إيزابيل: «ثمة باصات لكن لا يمكن الاعتماد عليها تماماً، كما إنك سترغبين في اكتشاف الجزيرة أثناء وجودك هنا».

الكلمات الثلاث الأخيرة شغلت بال إيف وهي تفرغ أمتعتها. ما الذي تعنيه؟ هل هي مجرد طريقة إيزابيل في إظهار المودة؟ أم أنها تعني أن إيف لن تمكث طويلاً؟ وإذا كان هذا صحيحاً، فما السبب؟ هل للأمر علاقة بجيك بشكل ما؟ أم بإيزابيل؟

هذه الفكرة أقلقت راحتها في أول أمسيّة لها في بيتها الجديد. وبعد أن أخذت حماماً بارداً لذيذاً، توجّهت لتتفقد الثلاجة.

لم تكن جائعة لكنها تريد فقط ما يساعدها على الصبر حتى الصباح. كانت تعلم أيضاً أنها إذا خلدت إلى النوم مبكرة، فستستيقظ قبل بزوغ النهار.

أعدت لنفسها سلطة أفوكادو تناولتها على مائدة المطبخ، ثم سكبت لنفسها كأساً من الصودا وخرجت إلى الشرفة خلف المنزل حيث جلست في كرسي تستمتع ببرودة الليل.

كان الظلام قد حل تقريباً، ومع أنها بقيت تسمع هدير البحر، إلا أنها لم تعد ترى المياه ترغي وتزبد في الخليج الصغير الذي لا يبعد عنها سوى أمتار قلائل. وخطر لها أن المشهد سيكون في انتظارها في الصباح. عليها أن تتصل بجدتها صباحاً أيضاً، لكنها كانت قانعة هذه الليلة بالجو الهادىء المسالم من حولها.

ظنت أن النوم غلبها لدقائق إذ أجفلها صوت محرك سيارة. لم تتزعج فثمة مساكن قليلة بعد بيتها.

لكنها ما لبثت أن أدركت أن السيارة توقفت، ثم سمعت صوت

خطوات على الممشى بجانب البيت. طرفت بعينيها. كم الساعة الآن؟ الحادية عشرة؟ كان عليها أن تكون في سريرها منذ ساعات.

تسارعت دقات قلبها. كان لديها شعور بأنها تعرف زائرها. لكن هذا لم يمنع موجة مخيفة من الإثارة اكتسحتها لفكرة رؤيته مرة أخرى. كانت تفضل ألاّ تراه الليلة... ليس الآن، وهي تشعر بمثل هذا الضعف. وتمنت لو أنها أطفأت الأنوار قبل أن تجلس في الشرفة. لو لم ترَ الضوء، لما توقف. ولم يعد أمامها من خيار سوى الاعتراف بأنها مستيقظة.

نهضت واقتربت من حافة الشرفة متعمدة الوقوف في الظل، لترى ملامحه قبل أن يرى ملامحها.

على أيّ حال، عندما استدار جيك نحو الدرجات المؤدية إلى حيث تقف، كاد قلبها يتوقف عن الخفقان. بقميص من القطن من دون كمين، وسروال قصير، بدا بجاذبيته الأخاذة المعهودة.

قال وهو يضع يده على الحافة: «مرحباً. هل يمكنني الصعود؟».

هزّت إيف كتفيها بعدم اهتمام: «إنه بيتك».

ولم تكن هذه دعوة بالضبط، ثم عادت وجلست على كرسيها.

تنفس جيك بعمق، ثم صعد السلم رغم أن كل خلية في جسده طالبته بألاّ يفعل. لم يكن ينوي الحضور. عندما ترك منزله، قرر المرور بجانب الكوخ ليطمئن إلى أن كل شيء على ما يرام. هذا كان عذره، على أيّ حال. لكن حين رأى الضوء لم يستطع المقاومة. ولم يدرك كم كان متلهفاً لرؤيتها مرة أخرى حتى أوقف السيارة.

قال وهو يقف عند أعلى السلم، مسنداً ظهره إلى العمود: «أنت متأخرة في السهر».

تمنى لو أن هناك مزيداً من الضوء ليتمكن من رؤيتها بوضوح لكن ما رآه منها جعل خفقات قلبه تتسارع: «ظننتك نائمة الآن».

نظرت باتجاهه: «أهذا ما جعلك تنتظر حتى الآن لتحضر؟ لأنك ظننت أنني نائمة؟».

دس يديه في جيبيه كيلا ترى توترهما، وقال: «لا، كنت أقوم بجولة بالسيارة فرأيت الضوء هنا».

فقالت ساخرة: «أليس الوقت متأخراً للخروج في جولة؟».

هزّ كتفيه: «ربما بالنسبة إليك. أما بالنسبة إليّ فلا يهم إذ لم أعد أنام».

وكان هذا صحيحاً، فمنذ عودته من إنكلترا لم ينم جيداً.

رفعت بصرها إليه. بدت قلقة نوعاً ما، لكنه لم يكن متأكداً نظراً لضعف الإضاءة.

- ربما يمكنك ذلك إذا نمت باكراً.

ورفعت كأس الصودا إلى شفتيها، وعندما رأته ينظر إليها سألته: «من المفترض أن أقدم لك بعض المرطبات. أليس كذلك؟».

نصحه عقله برفض عرضها فوجوده هنا خطأ في حدّ ذاته، وهو لن ينفع نفسه بشيء إذا ما دخل البيت.

لكن الإغراء بأن يراها بوضوح هزم أيّ معارضة لديه، فقال وهو يبتعد عن حافة الشرفة: «هذا حسن. هل لديك عصير؟».

نهضت إيف وفتحت الباب وهي تقول: «ألا تعلم؟ تعال وانظر».

مضت سنوات منذ دخل جيك إلى أحد هذه الأكواخ. وصدم على الفور وهو يرى الحالة المزرية التي أصبحت عليها، فسجّل في ذهنه ضرورة أن يدع المهندس يتفحصها ويصلح ما ينبغي إصلاحه. لكن أفكاره توقفت عند هذا الحدّ بعد أن عاد ينظر إلى إيف.

كانت ترتدي تنورة وردية قصيرة تكشف عن ساقيها الطويلتين، ففكر في مدى ضياع جمالها سدى في السراويل. وكانت تلبس معها بلوزة

مناسبة معلقة إلى كتفيها بحمالات رفيعة. واندفع الدم ساخناً في عروقه.

لم يعرف ما إذا لاحظت إيف نظرته الحادة إذ تجاهلتها وهي تخرج من الثلاجة علبة عصير: «هل تعجبك هذه؟».

- شكراً.

فتحت العلبة وسكبت له كأساً فشرب نصفها بجرعة واحدة. يا الله! كم كان بحاجة إلى هذا حقاً. لاحظ كيف حاولت أن تتجنب لمسه عندما ناولته الكأس. ورغم حسن ضيافتها له، لاحظ أنها متلهفة لخروجه.

نظر إليها وهي تشبك ذراعيها على صدرها وتستند إلى الثلاجة، وقال: «إذن، فقد كانت رحلتك جيدة؟».

بدت في عينيها نظرة غريبة ولم يدهش حين ردّت: «ألم تتحدث إلى جاسوستك؟».

- جاسوستي؟ ليس لدي جاسوسة.

- لكنك أرسلت الآنسة رودريغس للقائي، أليس كذلك؟

كانت ذراعاها تضغطان على صدرها، وتملكت جيك، للحظة، اللهفة لأخذ ما بين ذراعيه.

أرغم نفسه على النظر في عينيها وقال: «أرسلت إيزابيل للقائك. نعم. كنت واثقاً من أنك لن ترغبي في رؤية وجهي القبيح عندما تنزلين من الطائرة».

- أرجوك. وحده من لا يملك وجهاً قبيحاً، يقول كلاماً كهذا.

رفع حاجبيه ساخراً: «هل هذه مجاملة؟».

- هذه ملاحظة فقط. أنا متعبة، يا جيك. لماذا جئت حقاً إلى هنا؟

أيقول لها إنه جاء لأنه لم يستطع البقاء بعيداً عنها؟ لا. هذا لن ينفع. وقال بجد: «ظننت أنني أخبرتك. كنت...».

www.elromancia.com

فأكملت كلامه ساخرة: «كنت ماراً فرأيت الضوء. نعم. سمعت ما قلته. أتتوقع مني أن أشكرك للوظيفة التي قدمتها لي؟».

فشهق: «هذا شيء بسيط حتى بالنسبة إليك».

- لماذا(حتى بالنسبة إلي؟) هل لأنني ابنة كاسي؟ أنا لا أشبه أمي بشيء.

- أتظنينني لا أعرف هذا؟

وأطلق شتيمة وهو يرى أنهما عادا إلى الخصام.

- بعد ما عرفته عن أمك، لن أهينك حتى بالتلميح إلى أنك...

قطّبت جبينها: «بعد ما عرفته عن أمي؟ ماذا تعني بذلك؟ ما الذي أخبرتك به؟».

- الحقيقة. عندما دحرجت جدتك الكرة، لم يبق لديها الكثير لتقوله.

شعرت إيف بالغثيان: «أنت تعرف إذن عن... عن آل فولتين و... وآندي جونسون؟».

قال بخشونة، وقد كره نظرتها الذليلة إليه: «أنا أعرف أنك عشت أوقاتاً عصيبة للغاية».

وتابع: «إيف، أنا لا أقدم لك هذا العمل بسبب ماضيك أو أمك. أردت فقط أن أساعدك، وهذا كل ما في الأمر».

نظرت في عينيه لحظة، ثم نظرت إلى الأرض. ولاحظ لأول مرة أنها حافية القدمين ما أثاره للغاية. لكن ما قالته أعاد إليه اتزانه وأرغمه على مواجهة نظراتها الحذرة: «هل... هل ذهبت لرؤية كاسي قبل أن تغادر لندن؟».

فوجيء جيك. لم يكن يظن أن أمها أعلمتها بتلك المواجهة. وقال بهدوء: «نعم. فعلت هذا. هل هذا مهم؟».

- لماذا ذهبت لتراها؟

- أنت تعرفين السبب.

ورفع يده يمسّد الألم المفاجيء الذي شعر به في رقبته: «لا يمكنك أن تلقي حجراً في بحيرة هادئة من دون أن تتوقعي العواقب».

سرت في جسدها رجفة وقالت: «لكن لا علاقة للأمر بك».

حاول التحكم في طباعه لكنها سمعت الغضب في كلماته الخشنة، وهو يقول: «أردت أن أعلم لما هجرت طفلتها. لم تعطني جدتك أيّ تفاصيل. أردت أن أسمع ذلك من لسانها».

- لماذا؟ لماذا يهمك هذا الأمر؟

فقال باختصار: «هذا يهمني وحسب».

وقبض يده مضيفاً: «اسمعي. مجيئي إلى هنا الليلة خطأ».

- لم تستطع أن تبقى بعيداً عنها، أليس كذلك؟

- ماذا؟

- كاسي. أنت خرجت معها مرة أخرى. أليس كذلك؟

وارتجفت فجأة وتابعت: «عندما اتصلت بها جدتي وأخبرتها أنني سأقبل هذه الوظيفة، طلبت منها كاسي أن تحذّرني من أنك غير جدير بالثقة. حينذاك لم أفهم ما عنته، لكنني فهمت الآن. وهذا لا يعني أنني كنت بحاجة إلى تحذير. أنت...».

لم تنه ما كانت تقوله إذ قطع المسافة الفاصلة بينهما بخطوة واحدة وأمسك بكتفيها ورفعها عن الأرض. وفجأة، عانقها بصلابة وقوة وبكل الخبرة التي تعرفها منه.

وذابت بين ذراعيه رغماً عنها.

- كنت تعلمين أنني سأحضر، أليس كذلك؟

وتمتم بلهفة: «يمكنك أن تتهميني، ومع ذلك كنت تعلمين أنني سأحضر».

وتسللت يده بين خصلات شعرها المنسدلة بينما شتم مرة أخرى:

www.elromancia.com

«يمكنني التنبؤ دوماً».

راحت أنفاسها تتسارع وقلبها يخفق بقوة بينما رأسها يدور، لكن هذا ليس مهماً لأنها الآن حيث تريد أن تكون ولا تستطيع أن تهرب. وقالت: «أنت لست قادر على التنبؤ على الإطلاق».

فقال بعنف بالغ وهو يشدّها: «لم أستطع أن أبقى بعيداً عنك. كان عليّ أن أراك... هذا محزن، أليس كذلك؟ محزن بقدر ما أنت مستعدة لأن تظني بي الأسوأ مهما فعلت».

- كلا.

كان رأسها يسبح ولم تكن واعية إلى ما يقوله. لم تشأ أن تتكلم أو حتى أن تفكر. إنها تريده أن يعانقها وحسب حتى يندمج عقلها بحواسها: «جيك. هذا لا يهم».

- بل يهمني أنا.

فجأة أخذ يشتم ثم أصبحت حرة. وقفت تتمايل أمامه، محاولة أن تفهم لماذا أخذ ينظر إليها باحتقار الآن بينما منذ لحظات كانت بين ذراعيه. لكن ذهنها لم يستطع أن يفهم وهتفت: «جيك...».

فقال بخشونة: «أنا لم أخرج مع كاساندرا. وإذا كنت تظنينني فعلت، فأنا أضيّع وقتي معك».

- أنا... أنا لم أقل ذلك.

- إنسي الأمر، فقد نسيته أنا.

واتجه نحو الباب.

١٢ - دعوة وخديعة

كان جيك يراجع جداول الإبحار مع ربان آخر مركب، عندما سمع صوت خطوات حذاء مرتفع الكعبين. وللحظة داعبت خياله فكرة جنونية وهي عن ماهية شعوره لو كانت هذه الخطوات لإيف وهي قادمة لغزو مكانه، لكنه يعلم أن هذا لن يحدث. ورغم أنها ما زالت في الجزيرة، تعمل في المدرسة وتتمتع بشعبية بين الموظفين وأولياء الأمور، إلا أنه من غير المحتمل أن ترغب في رؤيته.

في الواقع، لم يتحدث إليها منذ ليلة وصولها أيّ منذ خمسة أسابيع تقريباً، علماً أنه أمضى قسماً من هذا الوقت خارج البلاد لحضور معارض في اليابان وأميركا الجنوبية. لكنه كان واثقاً من أنها تبذل جهدها لتتجنبه.

ولم يكن هذا سهلاً في جزيرة صغيرة مثل سان فيليب. في الواقع كان قد رآها مرات عدة، لكن من مسافة بعيدة. لم يشأ أن يعترف بذلك، لكن حتى بعد كل ما حدث، كانت نادراً ما تغيب عن ذهنه، ورؤيته لها ولو من على بعد أصبح ضرورياً كالتنفس.

وهذا ما جعله يصر على مديرة المدرسة كي تعرض عليها الوظيفة. في الواقع لم يكن ثمة وظيفة كهذه، رغم أن إيف، وبحسب قول المديرة، أثبتت أنها مميّزة للغاية. وبما أنها عملت في مدرسة إنكليزية، أصبح بمقدورها أن تقدّم أحدث الطرق التعليمية.

- جيك هل أنت هنا؟

www.elromancia.com

تعالى صوت أمه من الأعلى. وبعد أن ألقى نظرة اعتذار على دان كاسيري، سار جيك إلى أسفل السلّم وأجابها: «نعم. أنا هنا. هل كل شيء على ما يرام؟».

- نعم، ولِمَ لا يكون كذلك؟

شعر بالارتياح وهو يراها قد خلعت حذاءها حفاظاً على طلاء السطح الأبيض. وسألته: «هذا إذن المركب الجديد الذي أضفته إلى الأسطول؟».

- نعم. هل أعجبك؟

وفتح الباب واستند إلى إطاره، عاقداً ذراعيه. هزت أمه كتفيها بعدم اهتمام، فهي لم تكن تكترث بالسفن أبداً بل تشعر بالرضى في ملعب الغولف، أو خلف مقود سيارتها المرسيدس. وهذا كان سبب دهشة جيل حين رآها هنا. وقالت ببساطة: «إنه حسن للغاية».

بدا عليه خيبة الأمل من وصفها الخالي من الحماسة هذا وقال بجفاء: «لا بأس. هذا ليس سبب حضورك ما دام مديحك بهذه البرودة».

سوّت لوسي روميرو تنورتها الحريرية التبنية اللون. ثم ابتسمت له: «لم نرك منذ فترة ما جعلني أتساءل عما إذا كنت بخير!».

استطاع جيك أن يضحك رغماً عنه: «أنت تمزحين، يا أمي أليس كذلك؟ فأنا أرى أبي يومياً».

- هنا أو في المكتب. أنت لم تتناول العشاء معنا منذ أسابيع.

- كنت مشغولاً.

- ماذا تفعل بالضبط؟ أخبرني أبوك أنك تمضي معظم أوقاتك بمفردك. متى كانت آخر مرة قبلت فيها دعوة إلى حفلة؟ متى رأيت أخاك وزوجته لآخر مرة؟ سأخبرك... منذ أشهر.

قال بشيء من التوتر: «لم أكن أعلم أنك تسجلين تحركاتي».

ثم سار إلى مقعد خشبي طويل أمام القمرة وأردف: «أنا لم أعد في الواحدة والعشرين من عمري، يا أمي».

- ما معنى هذا؟

- فكري في ذلك. آخر مرة تدخلت فيها في شؤوني انتهيت بالزواج من هولي بيرنستين. هل يكفي هذا؟

- كانت هولي فتاة جميلة.

فقال بعنف: «ولكن ليس بالنسبة إليّ. هولي صغيرة العقل يا أمي، وليس لدي وقت لامرأة بهذه الصفة».

- ليس لديك وقت؟ حسناً. ربما ليس الآن.

فتنهد: «دعي هذا يا أماه، فأنا سعيد بوضعي هذا».

قالت وهي تنظر إلى قامته: «أحقاً؟ لكنني أراك هزيل الجسم؟».

فزمجر قائلاً: «أمي!».

- حسناً، كل ما نريده أنا وأبوك هو سعادتك.

- دعيني إذن وحدي.

- لا يمكنني هذا. تناول العشاء معنا مساء غد. أرجوك يا جيك. سأدع روزا تحضّر الحلوى المفضلة لديك.

- لن تدعي هذا الأمر، أليس كذلك؟

- وهل تريدني أن أفعل هذا؟

فابتسم ساخراً: «لا أظن ذلك».

- ستأتي إذن؟

- وهل لديّ خيار آخر؟

- هذا حسن.

ونهضت عن كرسيها وتقدمت منه تحتضنه: «هل الساعة السابعة تناسبك؟».

www.elromancia.com

فقطب جبينه: «هذا يبدو رسمياً بشكل فظيع. هل هي حفلة عشاء؟».

- صديق أو اثنان فقط. لا يمكنك أن تتراجع الآن. أنت قلت إنك ستأتي وستلتزم بكلمتك.

* * *

تنفست إيف بعمق، وتأملت مظهرها في مرآة الحمام من دون حماسة. الثوب الأسود القصير الذي اشترته جدتها لها، والذي بدا حسناً في إنكلترا، بدا هنا غير مناسب على الإطلاق ما اضطرها إلى الإنفاق على شراء ثوب آخر. ماذا ترتدي الفتاة إلى حفل عشاء في سان فيليب؟ خصوصاً حفل قد يحضره جيك؟

ارتجفت. لقد اشترت سترة حريرية عاجية اللون أكدت لها البائعة أنها مناسبة تماماً، لكنها لم تعد واثقة الآن. بدت مكشوفة أكثر مما ينبغي، فهي تكشف الكثير من ذراعيها وجسدها. الشيء الوحيد الذي أعجبها هو الحزام حول وركيها والذي يقفل بسلسلة ذهبية.

وتنهدت. لم تكن واثقة أيضاً من شعرها. فبعد أن أكدت إيزابيل لها بأن الشعر الطويل ليس عملياً في هذا الجوّ، قصته لكنه ما زال طويلاً إلى حد يمكن ربطه بشكل ذيل حصان لأجل المدرسة. لكنها تركته منسدلاً الليلة، فبدا غريباً في تأرجحه على خديها.

كانت إيزابيل متحمسة، وبما أنهما أصبحتا صديقتين لم تشأ إيف أن تخيّب أملها بإبداء شكوكها. كل ما تتمناه هو ألاّ تكون الدعوة إلى فيلاّ روميرو.

بدا وكأنّ جيك لا شأن له في هذا الأمر، إذ أن بصرها لم يقع عليه منذ ليلة وصولها إلى الجزيرة. ومن الشائعات التي سمعتها، علمت أنه بقي متوارياً عن الأنظار طوال الأسابيع الماضية.

وعلمت أنه كان في رحلة لفترة من الزمن وذلك من أحد العمال

الذين جاؤوا لطلاء الكوخ بناء لأوامره.

السبب الذي جعلها تحضر حفل العشاء هذا، هو أنّ السيدة رودريغس طلبت منها ذلك. فالمديرة وابنتها إيزابيل كانتا مدعوتين لكن السيدة رودريغس أصيبت في اليوم السابق بانفلونزا حادة، فطلبت من إيف أن ترافق إيزابيل، قائلة: «تحدثت إلى لوسي روميرو، وهي والدة جيك كما تعلمين، فسرّها جداً حضورك إليهم. كما أنك ستستمتعين بالحفلة أكثر مما سأستمتع بها أنا».

أرادت إيف أن تقول إنها لن تستمتع على الإطلاق، لكنها لم تستطع ذلك، فهذا ليس صحيحاً. وحدثت نفسها بأنها رضيت لأنها لم تشأ أن تخيّب أمل السيدة رودريغس وإيزابيل. لكن لو أرادت أن تكون صادقة تماماً مع نفسها، لاعترفت بأنها متلهفة لرؤية جيك، وهو ما يدعو للسخرية.

سمعت طرقاً على بابها تبعه صوت إيزابيل تناديها باسمها. ألقت إيف آخر نظرة على نفسها في المرآة قبل أن تسير إلى صديقتها، مصممة على أن تجد عذراً لئلا تذهب إذا أبدت إيزابيل أي شك في مظهرها. لكن الذهول بدا على إيزابيل حين رأتها، فاتسعت عيناها السوداوان بحيرة وهي تستوعب مظهرها قائلة من دون حماسة: «مظهرك حسن».

تنفست إيف الصعداء وسألتها بقلق: «أتظنين ذلك؟

قالت إيزابيل: «حسناً، تبدين مختلفة بكل تأكيد».

فتساءلت إيف إذا كانت الحدة في صوت الفتاة هي مجرد تخيلات منها وهي تتابع: «أنت فرس سوداء، يا إيف. ما كنت لأعرفك بالمقارنة مع مظهرك في المدرسة...».

- أليست ملابسي مناسبة؟

بالرغم من حذرها المفاجيء من موقف إيزابيل إلاّ أنّ إيف لم يكن لديها ثقة في رأيها الخاص. وأجابت إيزابيل: «أنا لم أقل ذلك».

www.elromancia.com

لم يكن ثمة ريب في الحدة في صوتها. نظرت إيزابيل إلى الساعة المرصعة في معصمها: «على أيّ حال، علينا أن نذهب. لا أريد أن أتأخر».

لم تكن بداية السهرة هذه تبشر بالخير. وتملك إيف القلق، بالنسبة لما تفعله طوال الطريق حتى بيت روميرو. لحسن الحظ أنّ إيزابيل اضطرت لأن تركز على الطريق بدلاً من التحدّث إليها ما ناسب إيف تماماً.

ورغم أن إيف لم تذهب قط إلى منزل والدي جيل، إلاّ أنها تعرف مكانه تقريباً. كان يحتل شبه جزيرة رائعة الجمال تبعد عن سان فيليب حوالى الميلين، ويفصلها عن الطريق سياج من الورود.

حوض السفن، حيث مقر شركة روميرو، يقع في المدينة. وقد جالت إيف على طول الرصيف، معجبة باليخوت العديدة الرائعة الجمال الراسية. كانت تضع نظارات سوداء، طبعاً في حال صادفت جيك، لكنها لم ترى حتى ظله ولو من بعيد.

- ها قد وصلنا.

وشدّت إيزابيل المكابح بعنف وهي تدخل من البوابة الحديدية، مما دفع إيف إلى الأمام. كان طريقاً قصيراً قامت على جانبيه أشجار نخيل تتخللها الأضواء، أفضى إلى فناء تتوسطه نافورة مضيئة. سيارة أو اثنتان سبق وتوقفتا في ناحية من الفناء، فأوقفت إيزابيل سيارتها خلفهما.

في ظروف أخرى، وربما كان الرهبة لتتملك إيف، لكنها انشغلت للغاية بالإعجاب بالفيلا المكونة من طابقين. كانت الشرفة المحيطة بالطابق الأول تطل على مشهد رائع للبحر فيما الجدران الدافئة المبنية من الحجر الرملي مغطاة بالنباتات المتعرشة.

- هذا رائع أليس كذلك؟

رغم أن إيزابيل لم تتكلم أثناء الرحلة إلا نادراً إلاّ أنها تذكرت على

ما يبدو آداب السلوك: «لقد بنى جد جيك هذا البيت بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة».

قالت إيف وهي تترجل من السيارة وتنظر حولها: «إنه جميل جداً».

كان التوجس يتملكها، وسألت إيزابيل: «أظنك تعرفين أسرة روميرو جيداً؟».

- لقد عرفتهم طوال حياتي.

ولم يكن هذا جواباً كاملاً. لكنها تأبطت ذراع إيف مضيفة: «هيا بنا. إنهم ينتظروننا».

عندما ارتقتا الدرجات الحجرية إلى المدخل، تساءلت إيف عما إذا كان هذا حقيقياً. كان صحيحاً أنهم ينتظرون إيزابيل، لكن من قالت السيدة رودريغس أنها سترسل مكانها؟

وعندما اتجه بصرها إلى الشرفة المضاءة حيث رأت عدداً من المقاعد المنجدة بقماش قرمزي اللون، خرجت من الفيلا امرأة شقراء لاستقبالهما، هاتفة: «إيزابيل».

ومدت يديها إلى الفتاة الشابة لتجذبها إليها وتقبلها على الخدين: «ما أجمل أن أراك مرة أخرى! من المؤسف أن أمك لم تستطع القدوم. أرجو لها الشفاء السريع».

- أنا واثقة من شفائها، يا سيدة روميرو.

كانت إيزابيل بالغة الدماثة واللطف الآن من دون أيّ أثر لغيظها السابق على وجهها الباسم: «دعيني أقدم لك إحدى معلمات أمي، إيف روبرتسن. لقد جاءت من إنكلترا منذ أسابيع فقط».

- نعم. أظنني سمعت بالآنسة روبرتسن.

وأجفلت إيف عندما أمسكت والدة جيك بيدها وحدّقت في وجهها بعينين مقيّمتين: «أظن أن إبني لعب دوراً في إعطائك الوظيفة، يا آنسة

www.elromancia.com

روبرتسن. هل أنا على صواب في الظن أنكما كنتما تعرفان بعضكما البعض في إنكلترا ؟».

- أنا... هذا صحيح. لطف منك أن تدعيني إلى حفلتك، يا سيدة روميرو. لديك بيت رائع الجمال.

وبللت شفتيها الجافتين وهي ترى أن لا فائدة من أن تصف لها ظروف تعرفها إلى ابنها.

بدا السرور التام على والدة جيك لهذا المديح: «شكراً. إننا نحبه. تفضلا بالدخول وقابلا بقية أفراد الأسرة. جيك لم يأت بعد، لكنني أتوقع وصوله قريباً جداً».

تبعت إيف إيزابيل ومضيفتها إلى قاعة استقبال فسيحة تنيرها ثريا ضخمة من البلور، اجتمع فيها عدد من المدعوين الآخرين الذين بدوا مستمتعين بضيافة السيدة روميرو. كان هناك موسيقى وضحك وكلام خافت توقفت كلها حين دخلت السيدة والدة جيك مع الفتاتين.

تقدم منهما رجل شائب الشعر هو والد جيك. وهو من قدم إيف إلى شقيق جيك، ميشيل، وزوجته جولي. وكانت جولي حاملاً، لكنها لا تزال تبدو رشيقة في ثوبها الذي يصل إلى ركبتيها. وتملك إيف الارتياح وهي ترى معظم النساء يرتدين ملابس قصيرة، بينما معظم الرجال لا يرتدون بدلات رسمية.

بدت جولي وكأنها أحبت إيف من النظرة الأولى. قالت لها: «أظنك تجدين الحياة في الجزيرة محدودة بعض الشيء، يا آنسة روبرتسن. هذا ما شعرت به عند قدومي إلى هنا».

فابتدأت إيف تقول: «إنها... إنها مختلفة عن....».

وقبل أن تنهي كلامها، تدخلت إيزابيل قائلة: «هذا لأنك لست من سكان الجزر. وإذا لم تعجبك فيمكنك أن تعودي إلى إنكلترا».

أخذت إيف تتساءل ما إذا كان هذا اقتراحاً أم تنبيهاً، بينما أدارت جولي عينيها ثم قالت لها: «كلنا نعلم أنك تحبين الجزيرة يا إيزابيل، لكنك تعلمين أن عليك أن تهتمي أنت بالمدرسة إذا رحلت هي».

توترت شفتا إيزابيل، لكن شقيق جيك اختار أن يلطّف الجوّ فسأل إيف بشكل عفويّ: «أتجدين التعليم عملاً مجزياً يا آنسة روبرتسن؟ لا يمكنني أن أصبر على التعامل مع طفل واحد، فكيف بأطفال».

فقالت زوجته: «من الأفضل لك أن تعتاد على ذلك».

فضحك الجميع.

- ادعوني إيف، رجاءً.

وشعرت إيف بالارتياح. كان ميشيل يشبه أخاه كثيراً ولكن من دون جاذبيته.

وعندما ناولها والد جيك كأس الكوكتيل الذي اختارته، انتبهت فجأة إلى أن شخصاً ما دخل الغرفة. لم يعلن أحد وصول ضيف ما، لكنها أدركت أن جيك هنا حتى قبل أن تسمع ميشيل يحيي أخاه.

لم تستطع أن تقاوم رغبتها في النظر إليه من فوق كتفها. بدا لها وكأن الحياة بطولها مرت منذ رأته. وجوده في هذه الغرفة أجج كل مشاعرها التي كانت قد أقنعت نفسها بالتحكم بها.

أدركت على الفور أنها كانت تضيّع وقتها، فهي لن تطرد جيك من ذهنها بتجاهله، أو بالتظاهر بأن ما جرى بينهما لا يعني لها شيئاً. خشيت للغاية أن يكون هذا قد تجاوز الانجذاب، وتحوّل إلى حب. حتى فكرة أن تشارك فيه امرأة أخرى بدت محتملة أكثر من ألاّ تراه أبداً، وألاّ تلمسه مرة أخرى.

حبست أنفاسها عندما تقابلت أعينهما، ورأت في عينيه صدمة. يبدو أن أمه لم تعلمه بأسماء الضيوف. وتساءلت عما إذا استاء من وجودها هنا... في بيت والديه.

www.elromancia.com

أغمضت عينيها لحظة وتنفست بعمق، وهي تدعو الله أن تعتدل خفقات قلبها. وشعرت وكأن نهراً من العرق يتفجّر في جبينها، كما التصق ثوبها المبلل بظهرها.

بدا هذا مضحكاً في قاعة مكيّفة. لكن يبدو أن جسدها يتصرف بشكل مستقل عن عقلها. حتى من خلف جفنيها المغمضين أمكنها أن تراه: أسمر، رشيق الجسم، جذاباً للغاية، ومليئاً بالرجولة بشكل لا يمكن تصديقه.

ارتعشت بعنف حين أخرجتها من أفكارها هذه قبضة قوية على ذراعها. وعندما فتحت عينيها لم تدهش وهي تراه بجانبها، وعيناه تقيّمان مظهرها بهدوء وحذر، ثم قال بخشونة: «أظن أنّ عليّ أن أقول، ماذا تفعلين هنا؟ صدقي أو لا تصدقي، لم أكن أعلم أنك مدعوّة. لو علمت ذلك لاعتذرت ولم أحضر».

تساءلت إيف عما عليها أن تجيبه. كان سهلاً عليها أن تواجهه بكلام مماثل، لكنها لم تستطع أن تفعل هذا: «أنا أيضاً لم أعلم أنك ستكون هنا».

غامرت بهذا القول بصوت خافت واعية إلى أن بقية الضيوف يسمعون حديثهما: «كنت... في الواقع أرجو أن أجدك هنا. هل لديك مانع؟».

غرز أصابعه في ذراعها لحظة، وعندما غامرت بنظرة إلى وجهه، رأت عينيه تلمعان غضباً. أخذ من يدها كأس شرابها ووضعه على منضدة قريبة بعنف. وبعد أن ألقى نظرة اعتذار على من حولهما، دفع إيف بخشونة نحو باب زجاجي يؤدي إلى الخارج.

لم تعلم ما ينويه. ربما هذه هي طريقته في طردها. وتساءلت عن رأي والديه في سلوكه هذا. كان سلوكه عدوانياً بكل تأكيد إذ فتح الباب بعنف ثم دفعها إلى الفناء خلف البيت. وبعد أن انغلق الباب خلفهما

بإحكام، أخذ يدفعها نحو القسم غير المضاء من الحديقة.

كانت إيف تنتعل حذاء عالي الكعبين، فشعرت بألم في كاحليها. وخلف عريشة من الأزهار تحجبهما عن أي أعين متلصصة، أدارها لتواجهه وهو يقول بعنف: «هل تستمتعين بخداعي؟».

www.elromancia.com

١٣ - لا تلوميني

- لم أكن أفعل هذا . . . لم أفعله.

طرفت بعينيها. كان وجهه في الظل، لكنها شعرت بالغضب ينضح منه: «لا أدري ما الذي تتحدث عنه».

- كلامك آخر مرة كنا فيها معاً . . .

فقالت مدافعة: «أنت تركتني. نعم. أنت فعلت هذا».

فشخر محبطاً: «أنت تعرفين السبب».

وعندما رفع يده ليرد شعره الذي ازداد طولاً عما كان عليه منذ أسابيع إلى الخلف، رأت ذراعه ترتجف.

- أنت اتهمتني بمعاشرة أمك مرة أخرى. أنا لم أعاشرها قط. ماذا تظنينني؟

فارتجفت: «إنها . . إنها أقصد هي التي . . . قالت ذلك».

فسألها وهو يقاوم رغبته في أن يهزها بعنف: «ومنذ متى تصدقين كل ما تخبرك به تلك المرأة؟».

فقالت بعجز: «أنت ابتعدت عني. ماذا كان يفترض بي أن أظن؟».

أمسك بذراعها وكأنه يستعين بها، ثم قال بصوت أبح: «أنت أردتني أن ابتعد عنك . قلت لي إنّ العلاقة بيننا مستحيلة بسبب . . . بسبب أمك».

أخذت نفساً مرتجفاً: «أعرف هذا . . . ولكن . . . أنت لم تناقشني».

- حسناً! هل عليك أن تفجري أكبر قنبلة في حياتي، وألاّ أبدي أي رد فعل؟ عودي إلى الواقع، يا إيف. كنت مجنوناً . . . مجنوناً كجهنم. بسبب كاساندرا، بسببك، ولكن على الأخص بسبب مشاعري.

- لأنك . . . لأنك ظننتني أخدعك؟

- هل تلومينني؟

وأخذ يلامس عروقها الدقيقة في باطن ذراعها وهو يتابع بصوت أجش كان له وقع الحرير في أذنيها: «كان عليك أن تخبريني الحقيقة، وكيف جئت لتعيشي مع جدتك، تلك الليلة في المكتبة، مثلاً. عندئذ ربما كنت أفهم لماذا كدت تنهارين لأن رجلاً حاول أن يفرض نفسه عليك بالقوة».

فقالت وهي ترتجف: «كان مجرد عناق».

- ولكنه كان يعني لك أكثر من ذلك.

- نعم.

رفعت بصرها إليه. ثم ولأنها أرادته أن يفهم، تابعت تقول: «ذكرتني بكل الليالي التي أمضيتها في الحمام عندما كنت أعيش مع آل فولتن. كان هو الغرفة الوحيدة في البيت التي تقفل من الداخل».

فتأوه: «ألم تخبري أحداً؟».

- نعم، أخبرت إميلي زوجته لكنها لم تصدقني، أو لعلها لم تشأ أن تعلم. على أيّ حال، هذا هو سبب هربي.

أخذ جيك يشتم: «أنا آسف. يا إلهي! على كاساندرا أن تعطي العديد من الأجوبة.

شعرت إيف بوهن في ركبتيها: «الحق . . . الحق يقال إنها لم تكن تعلم شيئاً عن ذلك».

التفت إليها يحدق فيها بقوة: «أتظنين أنّ هذا يمنحها عذراً؟ لا عجب في أنك لا تريدين أيّ علاقة بي».

www.elromancia.com

لم تستطع أن تدعه يعتقد ذلك: «هذا غير صحيح. أنت... أربكتني. حتى ذلك الحين لم أنجذب إلى أي رجل واعتقدت أن هذا لن يحدث أبداً. كنت أظن نفسي سعيدة تماماً بالعيش مع جدتي والقيام بعملي. لم ... لم أكن أريد أي شيء آخر».

- ثم...

- عندما جئت أنت، استأت منك. استأت مما جعلتني أشعر به نحوك.

- ما الذي جعلتك تشعرين به؟

فقالت متذمرة: «أنت تعرف».

- لعلي أعرف. لعلي أريد أن أسمعه من فمك فقط.

فهزت رأسها: «أدركت فقط أن هذا خطأ وحسب فأنا كنت أعلم أنك مع كاسي ولهذا لا ينبغي أن أشعر بشيء نحوك».

- لكنك شعرت؟

ردت بخجل: «أنت تعلم أنني شعرت. حتى تلك الليلة في المكتبة... أنا... حسناً، أدركت حينذاك أنك لست كأي شخص آخر عرفته.

فوضع يده على يدها: «ليتك أخبرتني».

- كيف يمكنني ذلك؟

فأفلتت منه آهة طويلة: «آه، يا طفلتي! لم نكن أنا وكاساندرا عشيقين قط. وأظن أن هذا هو السبب الذي دفعها لدعوتي إلى منزل الأسرة».

- لماذا قبلت دعوتها تلك، إذن؟

- صدقي أو لا تصدقي، أنا ما زلت أطرح على نفسي هذا السؤال منذ غادرت لندن. لم يكن لديّ عذر. كنت ضجراً كما أظن، ظننت من الممتع أن أرى ناحية أخرى من البلاد. ولم أدرك إلا بعد أن عرفتك أن

للقدر يداً في ذلك.

- أنت لا تعني ذلك حقاً؟

- لا أعنيه؟ أظنني أعنيه. إذا كنت تتحدثين عما بعد أن عانقتك في الإصطبل فعلي إذن أن أعترف بأنني لا أقبل الرفض جواباً.

لم تعد تستطيع التنفس: «أنت تعلم لما قلت ما قلته».

- أعلم. ما الذي تغير إذن؟

- كل شيء. لا شيء. لماذا نتبادل هذا الحديث؟ أنت قدمت لي عملاً لأنك أردت مساعدتي، كما قلت أم... أم أن ثمة سبب آخر؟

- وماذا غير ذلك يمكن أن يكون؟

وخفق قلبها: «لا أدري. هل ما زلت غاضباً مني؟ لأنك إذا كنت...».

لكن جيك لم يدعها تكمل فقال بخشونة: «كنت أغيظك».

وأوقفها على قدميها وعانقها عناقاً طويلاً: «بالله عليك يا إيف. لا بد أنك عرفت شعوري ليلة وصولك عندما زرتك في الكوخ. يعلم الله أنني لم أستطع البقاء بعيداً عنك».

فارتجفت: «أنت تعني هذا، أليس كذلك؟».

- لم أعن شيئاً أكثر من هذا في حياتي.

- آه، يا جيك.

وطوّقت عنقه بذراعيها وحدقت فيه غير مصدقة: «أخاف أن يكون هذا حلماً سأستيقظ منه في أي دقيقة».

- أنا راودتني أحلام كهذه أيضاً. خصوصاً عندما كنت أظنك ستدعين كاساندرا تدمّر بقية حياتك.

حبست أنفاسها: «هل ظننتني سأفعل هذا؟».

- وماذا كان يُفترض أن أظن؟

فتنهدت: «آه يا جيك. منذ أسابيع أدركت أنني لم أعد أهتم بشيء

www.elromancia.com

يتعلق بك وبها. لم أعرف كيف أخبرك... أو.... أو إذا كنت ستهتم».

- بل أنا أهتم.

وفجأة، سمع صوتاً يناديه: «جيك، جيك، أين أنت؟».

- إنها أمي تناديني للعشاء. هل أنت جائعة جداً؟

فضحكت: «أنا لست جائعة على الإطلاق».

فقال بعنف: «أنا جائع، ولكن ليس للطعام».

وأحنى رأسه يعانقها بسرعة ثم قال: «انتظري هنا».

وعاد بعد دقيقتين فنظرت إليه بقلق: «هل هي جائعة جداً؟».

- من؟ أمي؟ لا. ولماذا تجوع؟ لقد نظمت حفل العشاء هذا لتحاول إخراجي من عزلتي، وسيسرها أن تنجح.

- ولكن... إنها لا تعرفني.

- ستعرفك حالاً.

أمسك بيدها يقودها بين النباتات الطويلة إلى كثبان منخفضة من الرمال تحفّ بشاطىء ينيره ضوء القمر، وهو يتابع قائلاً: «أظن أنّ إيزابيل كانت هدفها الأساسي ولكن لو سألتني لأجبتها بأنها تضيّع وقتها».

ونظر إلى أسفل مردفاً: «ربما تودين أن تخلعي حذاءك. الرمال رطبة».

فعلت ما اقترحه عليها وهي تنظر حولها بعجب: «ما أجمل هذا كله».

تناول منها الحذاء وحمله متدلياً من رباطه، ثم وفيما هو يساعدها على النزول إلى الشاطىء، عادت تسأله: «هل نحن ذاهبان لنتمشى؟».

فقال بغموض: «مبدئياً. وقبل أن يبدأ ذهنك النشيط في التساؤل عن علاقتي بإيزابيل، عليّ أن أخبرك بأننا لم نكن يوماً أكثر من صديقين».

فنظرت إليه: «أنا أصدقك».

رفع يدها إلى شفتيه وقبّل راحتها: «هذا أفضل. في الواقع، لاحظت أمي أن شيئاً ما تغير في نفسي منذ عودتي من إنكلترا. وزني انخفض وبت لا أنام، ولم أعد أعرف ما عليّ أن أفعله».

- كان عليك أن تخبرني.

- نعم، حسناً، كنت أفكر في ذلك بالضبط. ثم عدت إلى البيت هذه الليلة لأجدك هنا.

وضمها إليه وهي تسير بجانبه: «هل تعجبين لرد فعلي هذا؟».

أسندت رأسها إلى كتفه: «ماذا قالت أمك؟ هل تتوقع منا العودة؟».

- ليس الآن. سألتني فقط (هل هي هذه؟) فأجبت بنعم.

لم تستطع أن تتنفس. كانت مليئة بالحماسة إلى درجة عجبت معها كيف يمكنها متابعة السير. أرادت أن تقف وتطلب منه أن يكرر ما قاله مرة أخرى لكنه بقي يجدّ في سيره. وبعينين زائغتين، أرغمت نفسها على النظر إلى وجهتهما. كان الشاطىء مهجوراً تماماً والرمال البيضاء كاللؤلؤ تتألق في ضوء القمر. ورغم أن ذراع جيك كانت تمنحها الدفء والطمأنينة إلاّ أن شعوراً بأن هذا كله حلم ومن فعل مخيلتها الخصبة ما زال يتملكها.

ثم، وعندما بدا أنهما لم يعودا يستطيعان التقدم من دون أن يتسلقا الصخور التي تحرس الجانب الآخر من الخليج الصغير، أشار جيك إلى فيلا قائمة خلف كثبان الرمل. كانت جدراتها التبنية اللون منسجمة مع محيطها، ولا يفضح وجودها سوى الضوء المتسرب من نوافذها.

- هيا. أريد أن أريك مكان إقامتي.

نظرت بذهول: «هل هذا بيتك؟».

فوضع ذراعه حولها: «نعم، تعالي وانظري».

وبعد ربع ساعة، كانا جالسين في غرفة جلوس جيك، وهي غرفة

www.elromancia.com

قامت فيها مدفأة ضخمة، كانت عصرية الطراز من دون تطرّف، وأرضها مغطاة بالخشب المصقول، والأرائك الثلاث منجدة بالشامواه والجلد.

- إنها رائعة الجمال. هل تعيش هنا وحدك؟

كان عند وصولهما قد عرّفها على مدير منزله الإيطالي الكهل لويجي، فقال: «باستثناء لويجي، أعيش وحدي. لماذا تسألين؟ هل ظننت أنني اصطحب إلى هنا مجموعة من النسوة للتسلية؟».

كانت إيف الجالسة على الأريكة تنظر إليه وهو يتنقل في نواحي الغرفة بشيء من الاضطراب، ثم تنهدت: «لا. لكنك قلت إنك كنت متزوجاً من قبل».

-نعم. مدة ستة أشهر تقريباً. ولمعلوماتك الخاصة، لم تسكن هنا. كان لديّ شقة في سان فيليب حينذاك.

- أنا مسرورة...

وعضت شفتها: «ألا تجلس؟».

نظر إليها وسألها: «أتريدين شراباً؟».

- وأنت؟

- لا. ولكن بما أنني حرمتك من كأس الكوكتيل التي حضّرها لك أبي...

فتنفست بعمق: «لا أريد شراباً. أريدك قربي فقط».

- وهذا ما أريده أنا أيضاً. ولكن هذا ليس كل ما أريد.

ودار حول الأريكة ثم نظر إليها بحدة بالغة: «ولا أدري إن كان لدي الإرادة والقوة للاكتفاء بالجلوس قربك».

ثم وضع يده على يدها الملقاة على الأريكة، فارتجفت وأضاف: «إيف... علينا أن نتحدث».

أمسكت بيديه وجذبته إلى جانبها على الأريكة: «سنتحدث. أما الآن، فاجلس».

جلس فضغط جسمه الثقيل على الوسائد فمالت نحوه، وتشبثت به ما جعله يتحوّل إليها وهو يطلق شتيمة ثم أخذها بين ذراعيه في عناق حار.

عندما رفع رأسه ونظر إليها، كانت مسحوقة بعنفه. وكان وجهه قد وترته مشاعر حاول جهده أن يكبحها له.

- ليست لديك فكرة عن مقدار لهفتي إليك، لكنني لا أريد أن أؤلمك.

فقالت متذمرة: «أنت لا تؤلمني».

وتأملها مفكراً في أنها مكوّنة من العاج والأبنوس. كانت بشرتها وشعرها وعيناها بسواد الأبنوس. وعندما أحنى رأسه ليعانقها مرة أخرى، شعر بخصلات شعرها الحريرية تلامس وجهه.

- جيك..

كان رنين اسمه على شفتيها مسكراً، وسماعه لها وهي تستعمله بتلك الطريقة المثيرة أدار رأسه.

قالت له بخجل امتزج بمشاعر حميمة أخرى: «عانقني، يا جيك. أريدك أن تعانقني. لا أريد أن أبقى غريبة الأطوار بعد الآن».

نظر إليها بعينين حائرتين: «غريبة الأطوار؟ أنت لست غريبة الأطوار».

فتنفست بعمق: «بل أنا كذلك... أنا لم أسمح لأيّ رجل بأن يقترب مني إلى هذا الحد قط من قبل».

هزّ جيك رأسه. على كاساندرا أن تجيب عن الكثير من الأسئلة. عندئذ، هتف بها بخشونة: «هذا لا يعني أنك غريبة الأطوار بل بريئة. يا إلهي، كم أنا معتوه! بعد كل ما عانيته...».

- بسبب غراهام فولتين؟ أخبرتك أنني كنت أمضي الليالي في الحمام.

www.elromancia.com

وقبّلت راحته لحظة، قبل أن تضيف: «كما أن آندي جونسون كان يعرف شعوري. حتى عرفتك لم أكن أطيق أن يلمسني رجل... منذ جاء ذلك الرجل إلى غرفة نومي، اعتدت أن أبتعد عن الرجال».

فتأوه: «يا إلهي... كم كنت مغفلاً».

- هذا غير مهم.

وأمسكت بيده تضغطها على خدها ثم تابعت: «ليس بالنسبة إلي... هل ما زلت تريدني؟».

فعاد يتأوه: «طبعاً أريدك... أريدك أكثر من أي وقت مضى... ولكن...».

فقاطعته بحزم وهي ترفع نفسها على مرفقيها: «لا أريد كلمة (لكن) هذه. لقد حلمت بك طويلاً وما كنت لأحتمل ألاّ تبادلني الشعور».

- يا إلهي العزيز! أظن أنني كنت أنتظرك طوال حياتي.

لقد سحرته هذه المرأة، فهي تملك كل ما يتمناه.

- نعم يا جيك.

عاد يعانقها بحرارة أذابت عظامها قبل أن يقول: «أنا أحبك! وأظنني أحببتك منذ رأيتك أول مرة. وإذا ظننت أنني سأدعك تذهبين الآن من دون قتال، فأنت مخطئة».

كلماته هذه قطعت أنفاسها. فأحست بنفسها تختنق وردّت متلعثمة: «لا... لا أدري ماذا أقول».

قال محاولاً أن يوضح كلامه المشبوب بالعواطف: «حسناً، يمكنك أن تقولي إنك تحبينني قليلاً جداً».

- كلا ليس الأمر بهذا الشكل. أنا فقط... حسناً، الأمر هو أنّ أنفاسي انقطعت.

مدّ يده يلامس خدها: «لكنك تعلمين مدى اهتمامي بك».

فقالت ثائرة: «وجدتي تهتم بي، هي أيضاً. أنت قلت إنك تحبني».

- نعم، أحبك.

- ولكن هل تقول هذا الآن؟

- ولماذا لا أقوله؟ أنت تمثلين كل ما أريده في المرأة وقد تكوّن بشكل جميل.

فارتجفت: «أنا لست جميلة».

- بل أنت كذلك.

ودس أصابعه في شعرها، متابعاً: «جميلة وحلوة ومرغوبة جداً جداً».

وجذبها إليه غير قادر على مقاومة لهفته إليها: «إذن، ما الذي ستفعلين حيال هذا الأمر؟».

- ما الذي سأفعله حيال هذا الأمر؟

- نعم. يمكنك أن تبدئي بأن تخبريني بشعورك نحوي.

هتفت وهي تحيط وجهه بكفيها: «يا إلهي! أنت تعلم أنني أحبك. ولكن حتى الآن لا أستطيع أن أصدق أنك تريدني».

- بل صدقي! جعلتني مجنوناً منذ قدومي إلى الجزيرة. كنت أعلم أن عليّ أن أمنحك وقتاً، لكن، وكما قلت لك من قبل، لم أستطع أن أنام أو أتناول طعاماً أو أفكر في أي شيء سوى أن نكون معاً.

دار رأسها للهفته هذه، وارتجفت للرغبة الواضحة في عينيه، فتنفست بابتهاج لعلمها بتأثيرها فيه، ثم سألته: «هل... هل تحبني فعلاً؟».

- يا طفلتي، ليس لديك فكرة عن مدى حبي لك... يجب أن نحتفل بخطبتنا غير الرسمية.

حدّقت إيف فيه غير مصدقة: «خطبتنا غير الرسمية؟».

فقال ضاحكاً: «حسناً، أنت ستتزوجينني، أليس كذلك؟».

www.elromancia.com

طرح عليها هذا السؤال قبل أن يعانقها، لكنها أخذت تتململ. ثمة أمور تريد أن تخبره بها. أمور من المفترض أن تطلعه عليها، قبل أن تصبح خطبتهما رسمية فلا يستطيع جيك التراجع عنها.

- أريد أن أخبرك عن أبي.

- عن أبيك؟ ظننت أن أمك لا تعرف من هو أبوك؟

- لا، بل هي تعرف. أرغمتها جدتي على أن تخبرها الحقيقة عندما كانت تبحث عني.

وأحنت إيف رأسها: «كان أبي كوبياً. لم تشأ أمي أن تخبر آل فولتن بهذا خوفاً من أن يغيّرا رأيهما».

صفر جيك بصوت منخفض: «وهل عرفته أنت؟ أعني بعد ذلك ؟».

- لا. اكتشفت جدتي أنه قتل في حادث تحطم طائرة بعد أسابيع فقط من حمل أمي بي. على الأقل لم تكذب كاسي في هذا فهو لم يشأ أن يصدق أنه سيصبح والداً لطفل.

- آه، يا حلوتي.

وجذبها إليه: «أنت عانيت من سوء المعاملة بكل تأكيد».

رفعت نظرها إليه: «أليس لديك مانع؟».

- ولماذا أمانع؟

فترددت: «لا أدري. اعتبر هاري مسألة أني نصف كوبية أمراً هاماً».

- من؟ ذلك القيس الغبي في قريتكم؟ هل هذا ما كدّرك إلى ذلك الحدّ تلك الليلة؟

- بل الطريقة التي قال بها ذلك، فضلاً عن أنني نبذته فقط لأنني منجذبة إليك.

- هذا الرجل ذكي على أيّ حال.

فاندست به: «أحبك. أنت تعرف هذا».

فقال بغرور: «أعرف... وهو السبب الذي جعلك تتزوجينني أنا وليس هو».

وبعد ستة أشهر، جلست إيف مع جولي روميرو، على الشرفة الخلفية للفيلا. كانت جولي ترضع ابنتها ذات الأشهر الأربعة فتساءلت إيف، وهي تنظر إليها، عما سيكون عليه شعورها وهي ترضع طفلاً. حسناً، ستعلم ذلك قريباً عندما يولد طفلهما.

لقد كتما سر حملها إلاّ عن جدتها وأقارب جيك المقرّبين.

أنهت جولي إرضاع الطفلة. وبعد أن سوّت ثوبها نقلت الطفلة إلى كتفها وهي تقول بعطف: «الحمد لله أن ذلك انتهى. لم أكن أدرك أن فم الطفل بهذه القوة».

فابتسمت إيف: «هيا... هاتها».

- إنها ثقيلة.

- ليس كثيراً.

وبعد أن وضعت الطفلة على صدرها سألت: «متى يعود مايك؟».

- قريباً، كما أرجو. ولكن هذا لا يعني أنني لا أقدّر لكما معروفكما في السماح لي بالإقامة معكما أثناء سفره؟ لقد اشتقت إليه، كما تعلمين. حتى ثلاثة أيام يمكن أن تبدو طويلة جداً أثناء الفراق.

قالت إيف متعاطفة معها: «أعرف هذا».

لكنها كانت شاكرة لأن جيل أوكل لأخيه الأصغر مهمة السفر إلى ما وراء البحار، ما يعني أنهما أمضيا الكثير من الوقت معاً. وأينما سافر، كانت ترافقه.

واختار جيك هذه اللحظة بالذات ليخرج من البيت قائلاً: «اتصل مايك لتوّه. لقد هبطت طائرته الآن، وهو قادم إلى هنا مباشرة».

قالت جولي بابتسامة عريضة: «هذا رائع».

فربت على كتفها ثم تحول إلى حيث إيف والطفلة راشيل على

www.elromancia.com

الأرجوحة، فيما نهضت جولي قائلة: «أنا ذاهبة لأتزيّن وأتأنق لزوجي».

ابتسم جيك لزوجة أخيه وهي تدخل المنزل ثم لامس ذراع إيف بإصبعه وهو يقول: «أنت تعلمين أن علينا ألاّ نكثر من استضافة الزائرين. أنا لم أبقَ معك وحدنا منذ أسبوع تقريباً».

فابتسمت إيف: «وهل هذه مشكلة؟».

فقال وشفتاه تلامسان كتفها: «ما رأيك؟ أنا أريدك لنفسي».

- حسناً عندما يأتي طفلنا...

- لن يهتم بما يفعله أبواه، وذلك لسنوات وسنوات...

- لقد مضت ستة أشهر. لعلك تعبت الآن مني.

- لن أتعب أبداً منك. أشعر وكأنني كنت أسير في نومي طوال حياتي. عندما عرفتك فقط أدركت ما كنت أفتقده. إننا مناسبان لبعضنا البعض، ومن دونك لن أشعر بالاكتمال أبداً.

وضعت رأسها على كتفه: «ما أجمل ما تقوله».

- إنها الحقيقة.

فابتسمت: «وأنا أكثر النساء حظاً في العالم. أنا مسرورة للغاية لأن جدتي اتصلت بك وأخبرتك عما يحدث».

- وأنا كذلك. رغم أنني لم أعلم ما إذا وافقت على الوظيفة في المدرسة. لو لم توافقي، لبحثت عن سبب آخر لأزور بلدك. لكنني كنت سأتحطم لو علمت أن جدتك باعت البيت ولم تعودي أنت هناك.

- لا بد أن شخصاً ما كان سيدلك على مزرعة آدم، لكنني مسرورة لأن الأمر لم يصل إلى ذلك الحد. لقد استمتعت جدتي كثيراً بالقدوم إلى هنا لحضور عرسنا. وكذلك آدم وأسرته... أراهن على أنهم ما زالوا يتحدثون عن السفر في طائرة خاصة.

فقالت بخجل: «نعم، أظننا، أنا وآدم ابتدأنا علاقتنا بالعداء، أليس كذلك؟».

- حسناً، لم تشعرا بالمودة تجاه بعضكما البعض.

- أتعلمين لماذا؟ ظننت أنه صديق آخر لك، والمسكين آدم أحد المتطفلين على كاسي.

فعبست إيف: «عندما سمعت أنها ستصبح جدة، لم يعجبها ذلك».

- وهل أهتم لما تقوله تلك المرأة؟

- حسناً، لقد أرسلت لنا هدية العرس. وأنا مسرورة جداً يا جيك. لا يمكنني أن أنسى أنه لولاها لما تعارفنا على الإطلاق.

فتنهد: «لا بأس. لكنني لن أنسى طريقة معاملتها لك في طفولتك. يمكنك أن تطلبي مني أن أسامحها، لكنني لن أنسى أبداً».

أخذت إيف تفكر عندما وضع جيك ذراعه حولها أنها هي أيضاً لن تنسى. وأخذت تلمس بطنها المنفوخ قليلاً بيد رقيقة. سيحصل طفلها على الحب، ليس منها فقط ومن جيك، بل من أسرته كلها، كما يجب أن تكون حياة الطفل. ودفنت وجهها في عنق جيك الدافىء.

www.elromancia.com